



رسائل جغرافية

ابن خلدون جغرافيًا

عرض ونقد لآرائه الجغرافية

أ.د مصطفى محمد خوجلي

رمضان ١٤١٧ هـ
فبراير ١٩٩٧ م

٢٠١

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت

للمؤسسات ١٢ دينارا كويتيا (سنويا)

للأفراد ٦ دنانير كويتية (سنويا)

خارج الكويت

للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا (سنويا)

للأفراد ٧٫٥ دينار كويتي (سنويا)

الجمعية الجغرافية الكويتية

ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت الخالدية   الرمز البريدي 72451

رسائل جغرافية

٢٠١

ابن خلدون جغرافيًا

عرض ونقد لآرائه الجغرافية

أ.د مصطفى محمد خوجلي
كلية التربية - جامعة الملك عبدالعزيز
المملكة العربية السعودية

رمضان ١٤١٧ هـ
فبراير ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن خلدون جغرافيًا

أ.د مصطفى محمد خوجلي

المقدمة

يعد ابن خلدون من أبرز العلماء العرب المسلمين ، بل ربما كان من أعظم العلماء الذين عرفتهم البشرية ، وليس في ذلك مغالاة إذ إن عبقريته واتقاد فكره وقوة ملاحظاته لا تقتصر فقط على الآراء التي أتى بها والتي كانت ولا تزال مثيرة للنقاش ، ولكن أيضاً لسببين آخرين : أولاً أنه من العلماء الذين ركزوا كثيراً - نظرياً ولحد ما عملياً - على أهمية ربط الظواهر الاجتماعية بأسبابها المنطقية . ولذا فمنهجه في البحث يهم كل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من علم اجتماع وتاريخ وجغرافيا بشرية واقتصاد وعلوم سياسية . . . إلخ . وثانياً لأن ابن خلدون هو منشئ علم جديد سماه العمران البشري أو الاجتماع الإنساني ، وهو في أساسياته نفس العلم الذي نسميه حالياً علم الاجتماع . ولا يضير ابن خلدون أن الكثيرين من العلماء الغربيين لا يقرون له بذلك السبق وينسبون ميلاد علم الاجتماع إلى علماء من قومياتهم . ولا نجد سبباً لذلك النكران إلا أن ابن خلدون ظل منسياً في العالم العربي حتى القرن الماضي . وربما كان السبب في نسيان آثار عبدالرحمن بن خلدون قروناً من الزمان أن آراءه ظلت متقدمة على عصره ، على الرغم من أنه أثناء إقامته في مصر قد جذب إليه عدداً كبيراً من الطلاب ولكن لم يستطع أحدٌ من تلامذته أو من الذين عاصروه أن يطور آراءه أو طريقته العلمية . وكما هو معلوم فإن

الفترة التي أعقبت القرن الرابع عشر الميلادي - القرن الذي عاش فيه ابن خلدون - كانت فترة ركود علمي وسياسي في العالم العربي . غير أنه بعد أن نُشرت مقدمة ابن خلدون فإن بعض العلماء من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية بدأ يعطي ابن خلدون حقه . وقد لخص محمد عبدالله عنان بعضاً من أقوال بعض كبار العلماء الغربيين في ابن خلدون وذلك في بحثه في مجلة المقتطف ١٩٣٣م ، كما قارن بعض العلماء العرب بين آراء ابن خلدون وآراء بعض العلماء الغربيين المحدثين . ومن أمثلة تلك المقارنات ما كتبه د . علي عبدالواحد وافي في مقدمته ود . طه حسين في دراسته عن ابن خلدون ومحمد عبدالله عنان في المرجع السابق .

وآراء ابن خلدون متضمنة في مقدمته التي قصد بها أن تكون مقدمة لكتابه في التاريخ المسمَّى «**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**» وقد طبعت المقدمة عدة مرات ابتداء من القرن الماضي . ولعل أهم الطبعات هي طبعة د . علي عبدالواحد وافي إذ أنه جعل لها مقدمة طويلة ، وقارن بين الطبعات وأكمل النقص وعلق وشرح شروحات كثيرة . فجاءت طبعته كاملة شاملة . وهناك طبعة الدار التونسية للنشر - عام ١٩٨٤م - وهي الطبعة التي يشير إليها الباحث الحالي عند الاقتباس . ونتيجة لظهور طبعات كثيرة «**للمقدمة**» فقد ظهرت كتابات كثيرة عنها . وأهم هذه الدراسات كانت من متخصصين في التاريخ والاجتماع والفلسفة واللغة العربية وآدابها . غير أن آراء ابن خلدون كانت كثيرة ومتشبعة بشكل ملفت للنظر ، فكما قال كراتشكوفسكي عرضت لنا خلاصة لجميع معارف العصور السابقة وفي مختلف الميادين (كراتشكوفسكي ، ص ٣٧٤ - ٤٨٤) .

غير أنه على الرغم من كثرة ما كُتب عن ابن خلدون ومقدمته فإن الباحث الحالي يظن أنه لم يُكتب عن ابن خلدون كثيراً في النواحي الجغرافية ، وإن كانت آراء ابن خلدون في الجغرافية البشرية متداخلة مع علوم أخرى ، وقد كان المتخصصون في تلك العلوم سباقين في الحديث عن «**المقدمة**» . ولكن هذا لا يمنع أن يتحدث الجغرافيون أيضاً عن «**المقدمة**» . وبالفعل فقد بدأ بعضهم يكتب . فعلى سبيل المثال ، هناك رسالة ماجستير تحت عنوان «الفكر الجغرافي عند ابن خلدون» قدَّمها الميلود الكوني الذيب لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، كما كتب د . حسين مؤنس بحثاً تحت عنوان «ابن خلدون جغرافيًا» ، في مجلة كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام (١٣٩٩هـ) ، غير أن ما كتبه الجغرافيون يُعتبر قليلاً مقارنةً بما كتبه علماء الاجتماع من غربٍ وغيرهم عن فكر ابن خلدون .

والدراسة الحالية هي استجابة لداعيين اثنين : الأول عبارة عن إسهام جغرافي لفكر ابن خلدون ، والثاني هو استجابة لما أراده ابن خلدون نفسه حينما طلب بتواضع العلماء أن تناقش أفكاره وذلك حيث يقول :

«وأنا من بعدها موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه ، بالإصلاح والإغضاء ، فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة ، والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من الإخوان مرتجاة» (المقدمة ، ص ٤٣) .

ولا بد أن نتعرض بالتعريف لابن خلدون[١] ومقدمته قبل أن نستعرض ونناقش أفكاره . فهو عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي . وكما يدل اسمه فإن

أصل عائلته من حضرموت . وقد هاجر أجداده إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري ، واشتغلوا بالعلم وبالسياسة ، ولكنهم تركوا الأندلس وهاجروا إلى تونس وما جاورها من مناطق شمال أفريقيا في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) على أثر نكبة الأندلس نتيجة لزحف النصارى على المناطق العربية واحتلالها عام ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م وُلد ابن خلدون عام ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢م بمدينة تونس ودرس بها وعمل فترة تقرب من خمسة وعشرين عاماً بالوظائف الديوانية وبالسياسة . وكانت شمال أفريقيا وقتئذٍ في غاية الاضطراب السياسي والانقلابات والدسائس السياسية . وقد اشترك ابن خلدون في عبض تلك الاضطرابات والدسائس وسُجن ، وكانت حياته مهددة عدة مرات . ولعل تلك الفترة على ما بها من مشاكل هي التي انضجت فكره وجعلته يتأمل مواضيع العمران البشري والعوامل التي تقود إلى نوء وانهيار الدول ، وأسباب تقدم الصناعات والاقتصاد في بعض المجتمعات دون غيرها . ثم اعتزل ابن خلدون السياسة واتجه إلى التأليف ، فاعتكف أولاً في قلعة ابن سلامة بالجزائر وهنا ألف كتابه «**العبر وديوان المبتدأ والخبر . . .**» ، ثم في تونس التي قام فيها بمراجعة ذلك الكتاب ثم انتقل إلى مصر حيث عمل بالتدريس وبالقضاء . وهناك نقح وأضاف بعض الإضافات إلى كتابه المذكور .

وكتاب «**العبر . .**» هو كتاب في التاريخ كما يشير إليه اسمه . و«**المقدمة**» هي جزء من ذلك الكتاب وليست منفصلة عنه . وكان الهدف من «**المقدمة**» هو أن يضع قوانين تعين الباحث في التاريخ على معرفة الأخبار الصادقة من الأخبار الكاذبة التي دوَّنها العلماء ، فهو يقول :

«وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام

وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها . . . وخلطها المتطلفون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها ، وزخرف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها . . . ولم يأت بعد هؤلاء إلاّ مقلّد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال ويحتذي منه بالمثال . . .» (المقدمة ، ص ٣٠ - ٣١) .

وكان هدف ابن خلدون أن يكتب التاريخ الصحيح ، ملاحظاً أسباب الوقائع والأحوال ، وأن يأتي بقوانين تعين عند تطبيقها على معرفة الصحيح من الباطل في التاريخ . فهو يقول :

« . . . فأنشأت في التاريخ كتاباً . . . وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأغراض الذاتية وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك وتقد على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك» (المقدمة ، ص ٣٢ - ٣٣) .

ونلاحظ من هذا النص تعبير *«ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك»* ومعنى هذا أن القوانين - أو ما سماه *«من الأعراض الذاتية»* لا بد أن تكون قوانين خالدة تطبق على ما مضى من الأيام والأجيال وعلى ما هو آت أيضاً ، فهو يقول :

«فللعمـران طبائع في أحواله تُرجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار» (المقدمة، ص ٣١).

ولذا فقد جاءت «المقدمة» شاملة لمعلومات كثيرة تهدف إلى بيان القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية في المجتمع. وقد توخى في هذه القوانين أن تكون متمشية مع منطق السببية. ولذا فالقوانين لا تخص علم الاجتماع أو التاريخ فقط ولكن تشمل كل المظاهر الاجتماعية بما فيها الجغرافية البشرية بفروعها المختلفة.

والبحث الحالي يتناول فقط الجوانب الجغرافية مع التسليم بأن هناك الكثير من الجوانب المشتركة بين الجغرافيا البشرية وعلوم اجتماعية أخرى. هذا ولن يتطرق البحث للجوانب التي تبعد عن الجغرافيا أو تكون هامشية لها.

وتقع «المقدمة» في طبعاتها الحديثة في جزئين. وكل جزء به ثلاثة أبواب، وكل باب به عدد من الفصول، وعنوان كل فصل هو عبارة عن القانون الذي يدور حوله النقاش. وعناوين الأبواب الستة كالآتي:

الباب الأول : في العمران البشري على الجملة [وفيه خمس مقدمات عبارة عن خمسة فصول].

الباب الثاني : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل [وفيه تسعة وثلاثون فصلاً].

الباب الثالث : في الدول العامة والممالك والخلافة والمراتب السلطانية [وفيه ثلاثة وخمسون فصلاً].

الباب الرابع : في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال [وفيه اثنان وعشرون فصلاً].

الباب الخامس : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع [وفيه ثلاثة وثلاثون فصلاً] .

الباب السادس : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه [وفيه ستون فصلاً] .

وسنرى أن المعلومات والآراء الجغرافية تقع في الخمسة أبواب الأُول ، غير أن ليس كل فصول هذه الأبواب في الجغرافيا ، فعلى سبيل المثال نجد في الباب الأول فصلاً تحت عنوان : «**في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا**» ومثل هذا الفصل لا يدخل في الجغرافيا . كذلك الباب السادس لا يدخل في الجغرافيا وإن أدخله بعض العلماء فسيكون هامشياً جداً .

وفي عرضنا لآراء ابن خلدون ونقدنا له سوف ننحو منحيين متصلين : أولاً نتعرض باختصار شديد لبعض المعلومات الجغرافية الصرفة التي أوردها . ونقول «باختصار» لأن تلك المعلومات منقولة عمن سبقوه من العلماء . ثم هي مبنيةٌ على الوصفِ وقليلٍ جداً من التحليل والتعليل . أمّا المنحى الثاني ، وهو الأهم ، فسنناقش فيه الآراء والقوانين التي جاء بها ابن خلدون . ولا بد أن نسأل عن هذه القوانين . هل هي قوانين مثل القوانين الطبيعية والرياضية ، صالحةٌ لكل زمانٍ ومكانٍ ، أم هي آراء تدخل في باب التعميمات فقط؟ ويمكن مناقشة ابن خلدون تحت عنوانين رئيسيين :

أولاً : معلوماته في الجغرافيا الطبيعية وأثر ذلك في البشر .

ثانياً : علاقة نحلة المعاش بأحوال البشر . وهذا يقودنا إلى مناقشة آرائه عن العرب ، ثم مناقشة آرائه عن نشوء الدولة وانهيارها ، وعلاقة ذلك بالترف وقيام الصناعات ، وتأثير ذلك كله في الأسعار .

الجغرافيا الطبيعية وأثرها في البشر

تقع معظم المعلومات والآراء عن الجغرافيا الطبيعية في الباب الأول، وبالأخص فيما سماه «**مقدمات**» من الثانية وحتى الخامسة. والمقدمات في هذا الباب عبارة عن فصول مثل الفصول الأخرى، ولكن أطلق عليها «**مقدمات**». وهو في ذلك على حق لأن الجغرافيا الطبيعية ليست ميدانه ولم يدع أنه يكتب فيها، ولكنه قصد البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان ويتأثر بها في كثير من أحواله. ومرجعه في ذلك هو بطليموس والإدريسي فيقول:

> «***وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه، والشريف في كتابه روجار، وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمورة من الجبال والبحار والأودية، واستوفوا في ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله، ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق***» (المقدمة، ص ٨٥).

وفي بداية الباب الأول تحدث ابن خلدون عن مقولة العلماء «**أن الإنسان مدني بالطبع**» أي لا بد من الاجتماع الذي هو المدنية وهو معنى العمران.

ثم انتقل ابن خلدون بعد ذلك إلى المقدمة الثانية وعنوانها:

«***في قسط العمران من الأرض والإشارة لما فيه من البحار والأنهار***».

ويبدو أن ابن خلدون قصد من هذه المقدمة أن يعطي خلفية جغرافية للأرض التي هي موطن الإنسان وعليها تعاونه وعمرانه وملكه. وهنا أعطانا أول وأهم قانون من قوانينه التي تحدد المعمور وغير المعمور من اليابس.

ويتركز ذلك القانون في اختلاف درجة الحرارة في الأقاليم الواقعة شمال وجنوب خط الاستواء . وقد أشار إلى ذلك القانون إشارة عابرة عندما قال :

«ولكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي فيها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود ، كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما سنتبين ذلك كله . . .» (المقدمة ، ص ٨١) .

وبالفعل فقد شرح ذلك القانون في مكان آخر من هذه المقدمة والمقدمات اللاحقة . ثم بدأ يتحدث عن جغرافية الأرض بشكل عام . فذكر أن الأرض كروية وأنها محفوفة بعنصر الماء ، وأن خط الاستواء ينصف الكرة ، وأن بين خط الاستواء وبين كل من القطبين تسعون درجة . ثم تحدث عن اليابس من الأرض وسماه المنكشف من الأرض ، ثم قسم المعمور من الأرض إلى أقاليم سبعة . وبعد ذلك تحدث عن البحار والأنهار . ثم أعطانا عنواناً آخر هو «تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك . وفي هذه التكملة معلومات وآراء جغرافية هامة تتمثل في قانونه عن الحرارة - سببها وأثرها على العمران . فيقول ابن خلدون :

«ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدها ، وما وجد من عمرانه فيتخيله الخلاء والقفار والرمال ، والبحر الهندي الذي في الشرق منهما ، وأمم هذين الإقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة ، وأمصاره ومدنه كذلك . والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك .

فالقفار فيه قليلة والرمال كذلك أو معدومة ، وأممها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة ، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً ، والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب كله خلاء وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لفرط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس» (المقدمة ، ص ٨٥) .

أما لماذا الحر فيفسره ابن خلدون بقوله :

«***ثم أن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان وإذا مالت فغير بعيد . . . وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال أو يميل عنه قليلاً ، فيكون التكوين ويتزايد على التدرج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد***» (المقدمة ، ص ٨٧) .

أما علاقة إفراط الحر بقلة العمران فيفسره ابن خلدون بقوله :

«***لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات***» (المقدمة ، ص ٨٧) .

ولا شك أن ابن خلدون كان على اطلاع على ما كتبه القدماء من العصر الإغريقي إلى المسعودي . ففيما ذكر نجد كثيراً من المعلومات الجغرافية التي اكتشفها الإغريق وأصبحت أساساً للجغرافيا على عهد ابن خلدون وكذلك في الجغرافيا الحديثة أيضاً : كروية الأرض ، وخطوط العرض ، وحركات الشمس الظاهرية التي تؤدي إلى أن تتعامد الشمس مرتين على خط الاستواء ومرة على مدار السرطان وأخرى على مدار الجدي أثناء العام الواحد ويزيد ميلان أشعة الشمس شمال وجنوب المدارين فتقل درجة الحرارة .

غير أن ابن خلدون أخطأ في عدة مواضع . فتفسيره لعلاقة قلة العمران وإفراط الحر بأن الحرارة تجفف المياه والرطوبات ليس بالتفسير الصحيح . نعم هناك علاقة طردية بين الحرارة والبخر ، فكلما زادت درجة الحرارة ، زاد معدل البخر وفقدان المياه . غير أن المياه في المناطق التي ذكرناها عدا المناطق الاستوائية قليلة لقلة الأمطار . ولذا فإن قلة العمران ترجع لأسباب مختلفة ، ولكن أهمها قلة الأمطار وموسميتها . ويمكن أن يستعاض عن الأمطار بموارد المياه الأخرى مثل الأنهار والآبار . غير أن الأنهار نفسها قليلة والآبار لا تصلح إلا في أماكن محدودة ، وهي عرضة لأن تنضب . وإفراط الحر نفسه يرجع إلى عاملين : **الأول** : ذكره ابن خلدون وهو تعامد أشعة الشمس ، والعامل **الثاني** : الذي لم يذكره ابن خلدون هو قلة الأمطار وقلة غطاء السحب إذ أن أي نقطة مكانية بين المدارين تتعامد عليها الشمس مرتين : مرة عند تحرك الشمس الظاهري نحو المادر ، ومرة أخرى عند الرجوع الظاهري للشمس نحو خط الاستواء والمدار الآخر . وفي الحقيقة فإن درجة الحرارة تكون أعلى في المناطق المدارية شمال وجنوب خط الاستواء في موسم الصيف مما هي عليه عند خط الاستواء . والسبب في هذا هو قلة غطاء السحب وقلة الغطاء النباتي بعد خط الاستواء وبين المدارين مما يساعد على ازدياد درجة الحرارة في تلك المناطق عما هو عليه الحال عند خط الاستواء . وعلى هذا فنحن نجد حالياً أن درجة الحرارة في المناطق المنخفضة بالنسبة لسطح البحر - ممبسا مثلاً - تكون في حدود ٧٩ - ٨٣ درجة فهرنهايت طول العام ، في حين أنها ترتفع في الخرطوم على خط عرض حوالي ١٥ درجة شمالاً إلى حوالي ١١٥ درجة فهرنهايت أو أكثر كأعلى درجة حرارة في الصيف . وهناك مناطق مرتفعة عن سطح الأرض ولكنها تقع على خط الاستواء - نيروبي مثلاً - وتنخفض بها درجة الحرارة إلى أقل من ٦٠ درجة فهرنهايت طول العام . وفي الغالب لم تكن تلك المناطق معروفة لابن

خلدون ، وأيضاً لم تكن مأهولة بالسكان ، وربما لو كانت معمورة لعرفها العالم القديم .

ومن ناحية أخرى نجد أن مناطق مدارية - في الإقليم الثاني - فيما يُعرف عند ابن خلدون بالسودان كانت بها ممالك وعمران وإن كان يتخلل ذلك العمران مفاوز ورمال ومناطق خالية من العمران . ولكن مجرد وجود ممالك ومدن ينفي قانون الحرارة الذي ذكره ابن خلدون . وقد حاول ابن خلدون - عليم نهجه في إيراد الأسباب - أن يرجع بسبب وجود الممالك والمدن إلى قرب تلك المناطق من الإقليم الثالث . غير أن السبب الحقيقي في قيام تلك الممالك والمدن يرجع لوجود المياه من الأنهار ومن بعض المصادر الأخرى . فقد قامت في القديم في غرب أفريقيا الكثير من المدن والممالك مثل دولة غانا ومدينة تمبكتو التي كانت على نهر النيجر ، وممالك تقع على أنهار صغيرة في نيجيريا ، ونجد في السودان مروى القديمة وعلوة ودنقلا العجوز التي كانت على النيل . . . إلخ . ولذا فيمكن أن نقول إن قانون الحرارة الذي اعتمد عليه ابن خلدون لا ينطبق على الإقليمين الأول والثاني [٢] ، ولكن ربما كانت به بعض الصحة في الإقليمين السادس والسابع لشدة البرد . فقد كانت تلك المناطق قليلة السكان على عهد بطليموس الذي نقل عنه ابن خلدون . وعلى أي حال لم تكن قلة السكان في السادس والسابع نتيجة قانون وإنما كانت ظاهرة فقط . فقد انتفت تلك الظاهرة في وقتنا الحاضر لوجود العمران في شمال أوروبا وأمريكا الشمالية ولم تبق مناطق خالية أو شبه خالية من السكان سوى المناطق القطبية .

إن أكثر الأقدمين - ومنهم ابن خلدون - ذكروا أن جنوب خط الاستواء خلاء لشدة الحر وإذا كان به عمران فهو قليل جداً . غير أن هذا القول لا يستقيم مع المناطق الذي اتبعه ابن خلدون ومفاده أن خط الاستواء يقسم العالم

وأنه بينه وبين القطب في كل اتجاه تسعون درجة ، وأن الشمس تتعامد حتى خط ٢٤ ، ثم بعد ذلك تنزل الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال . فلماذا لا يكون هناك عمران جنوب خط الاستواء وهناك تسعون درجة ومنها أقاليم اعتدال؟ وفي الحقيقة أن العمران في الجنوب قال به ابن رشد وكان منطق ابن رشد معروفاً لابن خلدون ولكن الأخير قال :

«*قد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا . والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين ، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب ، من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هناك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكون*» (المقدمة ، ص ٨٨) .

غير أن من المعلوم أن الأقدمين من الإغريق جعلوا امتداد أفريقيا جنوب خط الاستواء محدوداً . وهذا ما اعتمد عليه ابن خلدون . ولكن من ناحية أخرى كان العرب على عهد ابن خلدون يعرفون أن أفريقيا تمتد جنوب خط الاستواء - فقد وصل العرب حتى جنوب مدينة دار السلام في تنزانيا ، بل وإن المسعودي قبل ذلك بين على خريطته المشهورة أن هنالك كتلة أرضية للقارة الأفريقية جنوب خط الاستواء . ولكن ابن خلدون لم يأخذ بهذا الرأي ، بل ولم يشر إليه أبداً مع أنه قرأ كتابات المسعودي ، ولا ندري لماذا لك التجاهل .

وأعطانا ابن خلدون في هذه المقدمة الثانية عنواناً هو «**تفصيل الكلام على بدء الجغرافيا**» وكذلك أعطانا عناوين جانبية عن الأقاليم السبعة : الأول والثاني . . . وحتى السابع (خريقة رقم ١) ، وقسّم كل واحد من هذه الأقاليم إلى عشرة أقسام . وقد ذكر د . علي عبدالواحد وافي في الحاشية صفحة ٢٠٤ أن «**التيمورية**» [أي النسخة التي أخذ منها] تركت فراغاً كبيراً يسع لرسم

المصور . ويعتقد أن ذلك المصور هو المثبت في كتاب «**نزهة المشتاق في ارتياد الآفاق**» للإدريسي . غير أن كراتشكوفسكي ذكر على الهامش أنه قد عثر على الخريطة التي قصدها ابن خلدون محفوظة في نسخة واحدة من النسخ المتعددة لكتاب «العبر . . .» ورقمها ٢١٠٦ طلعت بدار الكتب المصرية . وبالفعل هي مأخوذة من الإدريسي (انظر خريطة الإدريسي) . ونجد التفاصيل الجغرافية لكل جزء من هذه الأقاليم السبعة ، فقد ذكر ابن خلدون حدودها ومعالمها الرئيسية - مثل الجبال والأنهار . وفي هذا لم يكن ابن خلدون جغرافياً ، بل نقل عن السابقين مثل بطليموس والإدريسي . ومن محاسن ابن خلدون العلمية أنه لم ينسب شيئاً لنفسه ، فهو يقول في عدد من المواضع تعابير مثل :

«*تبين في عدد من كتب الحكماء* . . .» (المقدمة ، ص ٨٠) .

«*المخبرين عن هذا المعمور* . . .» (المقدمة ، ص ٨١) .

«*قالوا* . . .» (المقدمة ، ص ٨٢ - ٨٣) .

وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف الإدريسي» (المقدمة ، ص ٨٥) .

وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر :

«*ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة* . . .» (المقدمة ، ص ٨٥) .

ولكن يبدوأن ابن خلدون لم يقصد «**بالمشاهدة**» مشاهدته هو ، بل مشاهدة الآخرين ، وذلك لأنه لم يصلنا عن ابن خلدون أنه سافر للأقاليم المختلفة ، وكانت أسفاره محدودة بشمال أفريقيا والأندلس ومصر والحجاز التي زارها لأداء فريضة الحج . ويبدو أيضاً أنه لم يتبع في جمع معلوماته

طريقة الجغرافيين العرب الذين عاشوا في القرنين التاسع والعاشر الميلادي . فلم يعرف عنه كثرة الأسفار ، وكذلك لم يجمع معلوماته من التجار والمسافرين مثل ما كان يفعل ابن حوقل والمقدسي . ولو أنه سأل واستقصى لما وقع في كثير من الأخطاء . ومن هذه الأخطاء على سبيل المثال - ما ذكره عن النيل . فقد أخذ عن بطليموس أن النيل يخرج من جبل القمر[٣] الذي هو وراء خط الاستواء (خريطة رقم ٢) . ثم إن ابن خلدون أخذ عن الإدريسي (خريطة رقم ٣) إشارته إلى **عدد من العيون التي يصب بعضها في بحيرة وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين وتصب في بحيرة واحدة على خط الاستواء . ثم يخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى الشمال ويمر ببلاد النوبة . . . ويذهب الآخر منعطفاً إلى الغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في المحيط وهو نيل السودان**[٤] (المقدمة ، ص ٨٤) .

ومن الواضح أن تلك معلومة جغرافية خاطئة . فليس هناك نيل يتفرع من نهر النيل ويجري غرباً حتى يصب في المحيط . وهذه نقطة ضعف في المنهج الجغرافي لابن خلدون لأنه لو سأل واستقصى - كما كان يفعل ابن حوقل والمقدسي لعرف الحقيقة ، وخاصة أنه عاش في القرن الرابع عشر الميلادي حينما أصبحت المعالم الجغرافية لغرب أفريقيا شبه معروفة أو معروفة نتيجة الاتصال السياسي والتجاري بين شمال وغرب أفريقيا . وابن خلدون نفسه يشير في كتاب المقدمة ، وكذلك في الجزء السادس من كتاب «العبر . . .» إلى علاقة بعض مناطق غرب أفريقيا بشمال القارة . وكذا أشار د . حسين مؤنس في كتابه (الإسلام الفاتح ص ٩٤ - ١٢٠) إلى أن العلاقة بين شمال وغرب القارة ، بدأت قبل عصر ابن خلدون ، واستمرت إلى ما بعد ذلك . إذاً فلم يكن غرب أفريقيا مجهولاً ، وكان يمكن لابن خلدون إذا اتَّبع المنهج الجغرافي في الاستقصاء أن يصل إلى كثير من الحقائق الجغرافية الصحيحة .

ابن خلدون والأقاليم المعتدلة والمنحرفة

والمقدمة الثالثة من الباب الأول كانت «**في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم**» وهذه المقدمة لا تشتمل على معلومات جغرافية بقدر ما فيها من آراء وقوانين تهم الجغرافيا البشرية كما تهم علوماً أخرى . وقد استنبط ابن خلدون تلك القوانين من المعلومات التي سبق ذكرها وهي الخاصة بإفراط الحر والبرد أو الاعتدال نتيجة لتعامد الشمس أو انحرافها ، والذي يؤثر في درجة الحرارة التي بدورها تؤثر في أحوال البشر وألوان بشرتهم وأجسامهم وأخلاقهم ودياناتهم وتجاراتهم والنقود التي يستعملونها ومنازلهم ومأكلهم . ولأهمية ما ذكره ابن خلدون فإننا نضطر أن نورد بالنص مقطوعات طويلة مما قاله في هذه المقدمة الثالثة والرابعة ، وذلك حتى تكون صورة فكره مكتملةً ، إنه يقول :

«وقد بيّنا أن المعمور في هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه ، لإفراد الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال . ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً . فالإقليم الرابع أعدل العمران ، والذي حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال والأول والسابع أبعد بكثير» (المقدمة ، ص ١٢٣) .

إذن فقد أكد ابن خلدون على قانون الحرارة - أو قانون الاعتدال في الحرارة - على أنه سبب العمران ، وأن الانحراف في الحرارة هو سبب قلة العمران . ويستمر ابن خلدون يتحدث عن تفاصيل الاعتدال والانحراف فيقول :

«لهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات .

والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة محفوفة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً وأحوالاً ، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها . ولم نقف على خبر بعثه في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك ليتم القبول لما يأتيهم من الأنبياء من عند الله . وأهلَ هذهِ الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم . فتجدهم في غاية من التوسط في مسكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ، ويذهبون في ذلك إلى الغاية . وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبتعدون عن الانحراف في غاية أحوالهم» (المقدمة ، ص ١٢٣) .

ثم أعطانا ابن خلدون أسماء أهل الاعتدال فقال :

«وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين ، وكذلك الأندلس ومن قرب منهم من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة» (المقدمة ، ص ١٢٣) .

ونختلف مع ابن خلدون في عدة نقاط فيما ذكره :

بادئ ذي بدء نقول إن الاستشهاد بالآية الكريمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ . . .﴾ (سورة آل عمران آية ٣) في غير محله لأن المخاطبين هم أمة الإسلام التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وهذه الأمة وإن كانت في البداية بالحجاز إلا

أنها انتشرت في كل الأقاليم بعد ذلك ، ولم يقتصر وجودها على الإقليم الأوسط فقط .

ثانياً : من ناحية نظرية ليس هناك أي دليل علمي على أن الاعتدال في الحرارة يؤدي إلى نشوء الحضارات ولا إلى نمو الصفات التي أسبغها على سكان الإقليم الأوسط . ثم ليس هناك علاقة بين الاعتدال في الحرارة ووجود المعادن الطبيعية من الذهب والفضة . . . إلخ . صحيح أن بعض العلماء المحدثين يقولون إن الميل إلى البرودة يجعل الإنسان أكثر نشاطاً وجلداً على العمل . ولكن ابن خلدون لم يلجأ إلى مثل هذا التعليل . ولو قال بمثل ذلك لارتد النقاش عليه لأن الأقاليم الخامس والسادس والسابع أكثر برودة طول العام من الإقليم الرابع ، فتكون بذلك أنسب للنشاط البشري .

ثالثاً : من أهل الاعتدال الذين ذكرهم من يسكنون في الإقليم الأول أو الثاني ، وليس بالضرورة يسكنون الإقليم الثالث أو الرابع أو الخامس . ومن هؤلاء أهل الحجاز والهند وجزء من الصين - كما ذكر ابن خلدون على صفحات ٩٥ و٩٦ من «المقدمة» . ومما لا شك فيه أن ابن خلدون وجد بعض التناقض في أقواله فحاول أن يجد مخرجاً من ذلك التناقض فقال :

> ***«ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاثة كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها ، فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار بها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر»*** (المقدمة ، ص ١٢٤) .

غير أننا نقول إن تعليل ابن خلدون يظل غير مقنع ، وذلك لأن الجزيرة العربية - عدا المناطق المرتفعة عن سطح البحر من اليمن والسعودية - هي

من أحر بلاد الله صيفاً . كما أن كل المناطق الداخلية [القارية] لا يصلها هواء البحار ، وأن معظم الجزيرة هي من أكثر بلاد الله يباساً كما تدل على ذلك كثرة الصحاري التي بها مثل الربع الخالي وصحراء الدهناء وصحراء النفوذ . ويُضرب المثل بالربع الخالي في اليباس . أما الهند فجزء منها يقع في الإقليم الأول وجزء منها يقع في الإقليم الثاني . ويمكن أن نسحب كلام ابن خلدون على الهند فنقول إن هواء البحار قد عدل بعض الشيء من هوائها . غير أن الحقيقة أن الهند بلاد حارة صيفاً وخاصة المناطق الداخلية . وهذه الحرارة هي أهم سبب في نشوء الرياح الموسمية التي تسبب الأمطار الغزيرة على تلك البلاد . وكان يمكن لابن خلدون أن يفسر عمران الهند بالأمطار والأنهار والتربة البركانية ، أما الحرارة فلا دخل لها بذلك العمران .

رابعاً : ربط ابن خلدون بين الاعتدال في الحرارة واعتدال الأجسام ولكنه لم يبين المقصود باعتدال الأجسام : هل هو القوة الجسدية؟ أم تناسق الأجسام؟ وإن كنا نقول إن القوة وتناسق الأجسام يكونان في الغالب متلازمين . وعلى أي حال فالملاحظة العامة لا تشير إلى أي فروقات في اعتدال الأجسام بين إقليم وآخر إلا في المناطق التي يسكنها الأقزام ، وهي مناطق محدودة جداً في العالم . وكذلك ربما كان للإغريق في بعض الأزمنة التاريخية – وليس حالياً – اعتدال في أجسامهم ولكن ذلك كان يرجع لعنايتهم بالتربية الرياضية . ولا نجد اختلافاً في الأجسام بين أهل شمال أفريقيا أو الأندلس أو الشام وبين أهل غرب أفريقيا . وبالإضافة إلى هذه الملاحظة نذكر ملاحظة أخرى أن الكثيرين من سكان غرب أفريقيا قد سيقوا رقيقاً إلى أمريكا للعمل بالمزارع ، وذلك لقوتهم وجلدهم على العمل في المناخ الحار وشبه الحار . وكذلك نجد الكثيرين من أهل الإقليمين السادس والسابع من لهم اعتدال كبير في أجسامهم في الماضي والحاضر . ومثال على الماضي نجد الفايكنج من سكان

شبه جزيرة اسكندنافيا الذين غزوا إنجلترا وسواحل غرب أوروبا عدة مرات . بل إنهم استعمروا ايسلاندا ووصلوا حتى جرين لاند . وكذلك كان سكان أواسط أوروبا من القبائل الجرمانية التي غزت الدولة الرومانية عدة مرات وكانوا أحد أهم أسباب سقوط تلك الدولة .

خامساً : تعرض ابن خلدون إلى الاعتدال في الدين والأخلاق ، وفصل ذلك بأن أغلب النبوات كانت في الأقاليم المعتدلة ، وأنه لم يقف عند خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية . ولكننا نقول إن الله سبحانه وتعالى يجعل رسالته حيث يشاء . ثم أننا لا نعرف من الأنبياء والرسل إلا الذين ذكروا في القرآن الكريم وعددهم خمس وعشرون . غير أن بعض العلماء تحدث عن عدد كبير من الرسل والأنبياء ، وإن كان العلماء غير متفقيين على العدد ، فقد يكون العدد ١٢٠٠ أو ٢٤٠٠ أو أكثر أو أقل فالله سبحانه وتعالى أعلم بعددهم وأماكن بعثتهم ، غير أن الله سبحانه أخبرنا أنه أرسل في كل أمة رسولاً فقال : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين**﴾ النحل آية ٣٥ . ويقول ابن كثير في شرح هذه الآية : «**وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً**»(ابن كثير الجزء الثاني ص ٣٣٠) وإذا كان ابن خلدون لم يقف على ذكر رسول أرسل للإقليم الأول أو الثاني أو السادس أو السابع فنحن نقول بدورنا أننا لا نعرف اسم رسول أرسل إلى أي من مناطق واسعة في الإقليم الثالث والرابع - مثلاً كل شمال أفريقيا والأندلس وفرنسا وإيطاليا واليونان - ناهيك عن مناطق في العالم الجديد وتقع في الإقليم الثالث والرابع ولم يرسل لها رسول !! - هذا مع إيماننا المطلق بصدق الآية المذكورة .

وعلى أية حال فإن كثرة من الأنبياء والرسل قد لا تكون دليلاً على اعتدال

الدين أو الأخلاق ، بل ربما تكون دليلاً على الانحرافات الدينية . وأكبر الانحرافات هو تعدد الآلهة ، وكان منتشراف في أجزاء كثيرة من العالم بما فيها اليونان التي نشأت فيها فكرة الأقاليم المعتدلة والمنحرفة كذلك . ومنهها الأمم التي عرفت عدداً كبيراً من الرسل والأنبياء . والمثل الحي لذلك بنو إسرائيل الذين أنجاهم الله من استعباد فرعون وقومه ، وبدلاً من شكر الله وتوحيده ، أشركوا **﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾** سورة الأعراف آية ١٣٨ . وبعد الشرك كانت هناك انحرافات أخرى كثيرة مثل انحرافات قوم لوط **﴿إنكم لتأتون الرجال وتقطعون الطريق وتأتون في ناديكم المنكر﴾** سورة العنكبوت الآية ٢٩ . كما قتل بنوا إسرائيل بعض الأنبياء - كما أشار لذلك القرآن الكريم **﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾** سورة آل عمران الآية ١٨١ . ولقد حاول بنو إسرائيل قتل عيسى عليه السلام ولكن الله سبحانه رفعه إليه ، إلا أن المسيحيين ما زالوا يؤمنون أن بني إسرائيل قد عملوا على صلبه بالفعل[٥] .

سادساً : فإننا نعتقد أن تقدم العلوم والصنائع والمباني والملابس والتعامل بالنقدين - كل هذه الأشياء مرتبطة بتقدم الحضارة الذي هو في الأساس العمران البشري على حد تعبير ابن خلدون ، كما ذكر ذلك ابن خلدون في الباب الخامس الذي سنناقشه بعد قليل . وعليه فلا علاقة لهذه الأشياء بعتدال أو انحراف الحرارة . ونشوء الحضارة يعتمد على عدد كبير من العوامل ، منها درجة الاتصال الذي يؤدي إلى تلاقح الأفكار . وأكثر مناطق الاتصال حيوية هي المناطق الوسيطة التي تلتقي عندها وسائل المواصلات . وابن خلدون نفسه أشار إلى ذلك حينما قال :

> ***«ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات»*** (المقدمة ، ص ١٢٣) .

رغم صواب نظرية الوسط فإن التاريخ يشير إلى مناطق معزولة نشأت بها

حضارات هامة ومثل ذلك في التاريخ الحديث بريطانيا واليابان ، وكذلك حضارة الإنكا في أمريكا .

وقاد ابن خلدون حملة شعواء على سكان الأقاليم البعيدة من الاعتدال وخاصة الإقليم الأول والإقليمين السادس والسابع ، فقال :

«أما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم ، فبناؤهم من الطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس . وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف . ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات . وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم . حتى لينقل عن الكثيرين من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً ، وكذا الصقالبة . والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك . وكذا أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من رب منهم من جوانب الاعتدال ، وهو في الأقل النادر مثل الحبشة والمجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد . ومثل أهالي مالي وكوكو والتكرور والمجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد ، يقال إنهم دانوا به في المائة السابقة . ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والأفرنجة والترك من الشمال ، ومن سوى هؤلاء من أهل تلك

الأقاليم المنحرفين جنوباً وشمالاً . فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم ، وجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم» (المقدمة ، ص ١٢٤) .

وفي نقدنا لهذه الآراء نشير إلى ما قلناه سابقاً من أن بناء البيوت يشير إلى درجة التقدم الحضاري . ولكن نضيف هنا بعض النقاط التي نعتقد أنها هامة . فالمعروف أن الإنسان يبني من المواد المتاحة في بيئته ؛ فإذا كان الطين هو المتوفر فلا حاجة للبناء بالحجارة التي قد تكون غير متوفرة . وكذلك لا حاجة للطوب الأحمر الذي يمكن أن يصنع من الطين . وغالباً يكون بناء الطين في المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة التي لا تستلزم بناء عدة طوابق بالمنزل الواحد . وللطين عدة مزايا على غيره من الحجارة أو الطوب الأحمر : فبيت الطين بارد حتى في أحر شهور الصيف ، وجدران الطين لا تنهار إذا تشققت ، وحائط الطين يصح فيه التبليط بمواد متوفرة هي خليط من الطين وروث الحيوانات .

أما البناء بالقصب أو القش فهذا مشاهد في أفريقيا المدارية . وأمثال تلك البيوت تكون في الغالب في القرى التي يوجد احتمال تنقلها لأي سبب من الأسباب . وأهم تلك الأسباب نضوب الماء أو فقدان الأرض لخصوبتها . والملاحظ أن السكان المستقرين الذين يبنون بالطين أو القش لهم ذوق رفيع - على عكس ما ادعى ابن خلدون . فواجهات بيوت الطين - كما نشاهده في البيوت القديمة في بلاد النوبة في شمال السودان وجنوب مصر ، كانت إلى قريب عهد تُزخرف بالرسومات والكتابات الفنية . وبيوت القش في أفريقيا تكون عادة ذات شكل مخروطي . وعند التدقيق في شكلها نجده في غاية الدقة الهندسية والذوق الرفيع كأنه نسيج من قماش ، وذلك بجانب ما تتمتع به من برودة في شهور الصيف . ونجد حالياً - ولا شك أنه كان على عهد

ابن خلدون - أن الكثير من مجتمعات جنوب وشرق آسيا بما فيهم الصين يبنون بيوتهم - أو على الأقل سقوف بيوتهم من القصب والقش ، ولم يخرجهم أحد من دائرة الحضارة أو يقول عنهم أنهم متوحشون .

وساق ابن خلدون - كمثال لانحطاط سكان الأقاليم المنحرفة - أن غالب أقواتهم من الذرة والعُشب . وفي نقدنا لزعم ابن خلدون نذكر أن القوت ليس فقط لغذاء الأجسام ، ولكنه أيضاً تذوق ، والتذوق يأتي بالعادة . فعلى سبيل المثال نجد الكثيرين من سكان جنوب وشرق آسيا يقتاتون على الأرز ولا يستبدلون به أي غذاء آخر - حتى وإن كان قمحاً . وكذلك في اليابان التي يمكن أن تصنف على أنها في الإقليمين الثالث والرابع - لهم أكلة مفضلة هي عبارة عن سمك نيء يقطع ويؤكل مع قطع من الزنجبيل . وكثير من السكان على سواحل البحار والمحيطات يأكلون العديد من الأحياء والنباتات المائية - ومنها ما تعافه نفوس الكثير من سكان الداخل من القارت .

وعلى هذا الأساس فوصف أقوات سكان إقليم ما بأنها مائلة للانحراف لا ينسجم مع المنطق السليم ، لأنه ليس هناك مقياس للاعتدال أو الانحراف في تذوق الأكل ، وإذا كان هناك مقياس فهو التعود .

كذلك ذكر ابن خلدون فاكهة الأقاليم المنحرفة . ولكن ابن خلدون لم يذكر فاكهة بعينها كمثال لأن تكون **(مائلة للانحراف)** . ومن معرفتنا الحالية بفواكه الإقليم الأول والثاني نذكر المانجو والباباي وجوز الهند والموز . ولا نجد حالياً من سكان في أي إقليم من الأقاليم من يعتقد أن هذه الفاكهة مائلة للانحراف . ومن عجب أن ابن خلدون يحط من قدر الذرة وهي من الحبوب التي تصلح لبيئة الإقليم الأول والإقليم الثاني لأنها تحتاج إلى درجة حرارة عالية ، في حين أنه يناقض نفسه فيرفع من قدر من كان غذاؤهم قاصراً على :

«الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسويس ، فتجد

هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم» (المقدمة ، ص ١٢٩) .

ذلك مدحه لأهل الأندلس الذين قال فيهم :

« . . . مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة ، وغالب عيشهم الذرة ، فنجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم» (المقدمة ، ص ١٢٩) .

ونقدنا لابن خلدون في أن ملابس سكان الأقاليم المنحرفة من أوراق الشجر أو الجلود أو أن يكون أغلبهم عرياً من اللباس مبني على أن اللباس بشكل عام مرتبط بالحضارة ، وليس بالضرورة لوقاية الجسم من أشعة الشمس أو زمهرير الشتاء . فقد وجد الأوروبيون عند اكتشافهم للجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية أن السكان لا يستعملون الملابس رغم البرد الشديد . ونقول أيضاً إن الحضارة قد تكون اليوم في إقليم وتنتقل غداً إلى إقليم آخر ، أو أن يصبح إقليم آخر أكثر تحضراً . ويمكن أن نضرب مثلاً بسكان الإقليم الرابع وخاصة اليونانيين ، فقد كانوا ذات يوم أكثر أهل الأرض حضارة ، ولكن حالياً نجد سكان غرب وشمال أوروبا أكثر تحضراً مع أنهم من سكان الإقليمين السادس والسابع . كذلك نقول إن سكان جنوب فرنسا في نهاية العصر الجليدي الأخير كانوا يسكنون الكهوف ويلبسون الجلود ، ثم أصبحت فرنسا اليوم قطعة من بلاد الحضارة الحديثة . ومن العجيب جداً أن بعض سكان الأقاليم المتحضرة جداً لهم حالياً أندية للعرايا ! ! .

ونلاحظ أن ابن خلدون قد استثنى بعض سكان الإقليم الأول والثاني من الصفات غير الحميدة التي ذكرها ، فقال **«إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال»** ، وضرب مثلاً ببلاد الحبشة وأهل مالي وتكرور . ولكن غرب أفريقيا - قبل دخول العرب إلى أفريقيا وكذلك قبل دخول الإسلام - كانت

منفصلةعن الشمال بصحراء شاسعة ، ورغم ذلك كانت لهم حضارات وممالك كثيرة . إذاً فبداية حضارة غرب أفريقيا كانت قبل الاتصال بالشمال . ومن الصحيح أيضاً أن هذه الحضارة ازدادت نمواً بعد أن قهر العرب الصحراء واتصلوا بهم . والشاهد في هذا النقاش أن حزام الإقليم الثاني الذي يمتد من السنغال وحتى أثيوبيا كان به عمران بشري كبير قبل الإسلام - وإن كان ذلك العمران متفرقاً ، ويرجع سبب التفرق إلى تباعد مصادر المياه لا إلى الإفراط في الحر . وقد تقبل السكان الإسلام عندما وصلهم ولو كان مزاجهم منحرفاً لما كانت لهم حضارات ولما تقبلوا الإسلام .

وقد أفرط ابن خلدون في ذم سكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال وخاصة في أفريقيا فوصفهم بالتوحش وعدم الاستئناس وبعدهم عن الإنسانية . والحقيقة غير ما ذكر ابن خلدون . وربما كان من بعض السكان المنعزلين في بعض أقاليم الغابات آكلي لحوم البشر . ولكن ذلك لم يكن ظاهرة تجري على كل أو معظم سكان الإقليم الأول أو الثاني . وإن كان هناك من يأكل لحوم البشر فقد كان في الغابات الاستوائية حيث تنعدم الحيوانات ، ويصبح جسم الإنسان في حاجة إلى بروتينات ، فيبحث عنها في لحوم إنسان آخر . وهذا ليس بمستغرب في أوقات الضرورة وإن كان مثيراً للاشمئزاز . وحدث هذا في كثير من الدول في القديم وفي الحديث . وقد نقل د . طه حسين عن عبداللطيف البغدادي الذي زار مصر في نهاية القرن السادس عندما كانت مصر ضعيفة نتيجة لجور الولاة والحروب الصليبية «**أموراً هائلة ، منها أنه رأى مراراً أناساً يعاقبهم الحاكم لمطاردتهم الصبية والضعفاء بقصد أكل لحومهم** ، د . طه حسين ، ترجمة محمد عنان (المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين المجلد الثامن ، علم الاجتماع ، فلسفة ابن خلدون ، ص ١١٨) .

وكان من أهل السودان من له أخلاق حميدة وعالية . وللتدليل على ذلك

نأخذ مثلاً مما أورده ابن خلدون نفسه ، وتلك قصة عبدالله بن مروان مع ملك النوبة ، والتي جاء فيها :

«أقمت ملياً ، ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض ، وقد بسطت لي فرش ذات قيمة ، فقلت له : ما منعك من القعود على ثيابنا؟ فقال : إني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله ، ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت : إجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم ، قال : لم تطأون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم ، قال لم تلبسون الديبا والحرير وهو محرم في كتابكم؟ قلت : ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا ديننا فلبسوا ذلك على كره منا ، فأطرق ينكث بيده في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا! ثم رفع رأسه إليَّ وقال : ليس كما ذكر ، بل قوم استحللتم ما حرم الله وأتيتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم في بلدي ، فينالني معكم ، وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي» (المقدمة ، ص ص ٢٦١ - ٢٦٢) .

إننا لا نأخذ هذه القصة على أنها حكاية معزولة تمثل أخلاق فرد من الناس ، فالناس على دين ملوكهم ، وكذلك الملوك فقد يتمثل فيهم الرأي العام والخلاق العامة للشعب . فلو كانت أخلاق النوبة - وهم من سكان الإقليم الثاني - فاسدة لانحراف الملك معهم . وقد ذكر المسعودي :

أن الزنج أولو فصاحة في ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، فيقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم في

القـرب من بارئهم ، ويحثـهم على طاعتـه ، ويرهبهـم من عقـابه وصولته ، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم (المسعودي ، جـ ٢ ، ص ١٧) .

وفي المقدمة الرابعة يواصل ابن خلدون حملته على سكان الإقليم الثاني ، بانياً فكرته على قانونه في انحراف الحرارة فيقول :

«قد رأينا من خلق السـودان على العمـوم الخفـة والطيش وكـثرة الطرب ، فنجـدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصـوفين بالحمق في كل قطر . والسبب في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمـة أن طبيعـة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيـواني وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكاثفه . ونقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخل له زائدة في كميته . ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخله بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح» (المقدمة ، ص ١٢٧) .

وفيما ادعى أنها ظاهرة نجد ابن خلدون ليس أصيلاً ، بل إنه ناقل عن المسعودي الذي نقل بدوره عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي . غير أن ابن خلدون اختلف معهم في تفسير تلك الظاهرة . ففي حين أن المسعودي فسَّر الظاهرة بضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، نجد أن ابن خلدون يصف ذلك القول بأنه *«كلام لا محصلة له ولا برهان»* . (المقدمة ، ص ١٢٨) نجده يرجع الظاهرة إلى قانون الإفراط في الحرارة فيقول :

«ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة

أبدانهم وإقليهم ، فتكون أرواحـهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً ، فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وانبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذا» (المقدمة ، ص ١٢٧) .

ونحن نقول إن ما زعمه الأقدمون من جالينوس مروراً بابن إسحاق الكندي والمسعودي وابن خلدون على أنه ظاهرة تحتاج إلى تفسير هو ليس بظاهرة عامة ، وليس في كل قطر . فليس كل ولا أغلب أهل السودان (أهل الإقليم الثاني) كما زعموا ، بل ربما يكون العكس هو الصحيح ، فلا نجد الفرح والسرور بادياً عليهم ، ولكننا نرى أن أكثرهم مقطبي الجبين . وربما أصبح ذلك عادة لهم نتيجة لأن أشعة الشمس القوية التي تصل إلى الأرض الجرداء ترتد إلى وجوههم فيظهر عليها العبوس ولا تجد الابتسامة إليهم سبيلاً - إلا إذا كانوا في الظل[٦] .

أما الطرب فربما كان لأهل السودان نصيب منه ، مثلهم في ذلك مثل سكان بقية الأقاليم . فلا نظن أن أهل السودان أكثر طرباً من سكان حوض البحر المتوسط ، الإقليمين الثالث والرابع . فقد عرف سكان تلك الأقطار منذ القدم بحبهم للموسيقى والطرب والرقص الكثير . وقد انتقلت منهم عادات الطرب والموسيقى والرقص إلى سكان الإقليمين السادس والسابع - وهي مناطق الصناعات والخدمات الحديثة . فنجد السكان يعملون خمسة أيام في الأسبوع ، ثم ينتظرون بفارغ الصبر عطلة نهاية الأسبوع - ليلتي السبت والأحد للفرح والطرب وشرب الخمر والرقص . وقد أصبح ما يسمى بحمى ليلة السبت Saturday Night Fever مضرب المثل . وقد جارتهم اليابان في ذلك .

وإن كان هناك تفسير لانتشار الطرب في المجتمعات المختلفة فلا يُفسر ذلك بإفراط الحر ولكن يُفسر بوجود وقت فراغ بعد فترة من العمل الشاق كما رأينا ذلك في الدول الصناعية . وجرياً على هذا القول نقول إن أهل السودان

يعملون بجد في الزراعة وذلك في موسم الأمطار، فإذا حل موسم الجفاف اتجهوا إلى حصاد المزروعات - ويكون ذلك غالباً في شكل مجموعات - تسمى في جمهورية السودان بالنفير. ويقدم الغذاء لمن يعملون في ذلك النفير وتغنى الأغاني لتشجيعهم على العمل على أصوات النغم. وبعد الحصاد لا يكون لهم عمل رئيسي لأن الفصل يكون فصل جفاف، فيتجهون أولاً لإقامة حفلات المناسبات مثل مناسبات الزواج أو الختان. وهناك يقدم الغذاء ويضربون الطبول ويرقصون. أما في نهاية موسم الجفاف فيقل الغذاء وتبعاً لذلك تهزل الأجسام ويشتد الحر فلا تقام حفلات إلا نادراً وعليه يقل الطرب والفرح ويحل محلهما السأم والعبوس.

أما الفرح والحزن والحمق الذي أشار إليه ابن خلدون فهي صفات لا تأتي من الحرارة أو البرودة. ولو كانت كذلك على منطق ابن خلدون لوجدنا سكان الإقليمين السادس والسابع أكثر أهل الأرض حزناً ورصانة. والتفسير الحصيح لهذه الصفات وعكسها أنها صفات اجتماعية ودينية. فنجد الرسول الله ﷺ ينهى عن كثرة الضحك لأنه يميت القلب، ونجد الكثير من المسلمين المتدينين يكثرون من البكاء والحزن بغض النظر عن الإقليم الذي يسكنون فيه سواء كان مفرطاً في الحرارة أو البرودة.

ولا ندري ماذا قصد ابن خلدون بالحمق، فهو لم يعرِّفه ولم يبين مظاهره غير أننا نعرف أن التعبير يستعمل لسرعة الغضب الذي ينتج عنه تصرف سريع غير مدروس وغير لائق. وقد نهانا رسول الله ﷺ عن الغضب، بل وبيَّن لنا كيف نتخلص من الغضب. ولذا فالمسلم الحق لا بد أن يعوِّد نفسه على عدم الغضب وبالتالي لا يكون أحمقاً. إذاً فالحمق صفة لا ترتبط بإفراط الحرارة ولكنها صفة تُكتسب أو تزول بالتعود على قيم معينة.

ولا بد من أن نعلق تعليقاً أخيراً على ما ذكره ابن خلدون في المقدمة

الثالثة والمقدمة الرابعة . إن الأفكار التي اشتملت عليها المقدمتان مأخوذ أغلبها من الفكر الإغريقي ، وابن خلدون ليس له سوى محاولة إيجاد تعليل منطقي لحدوث الصفات المذكورة ، وقد أخطأ صاحب «المقدمة» في معظم تفسيراته ، وإن كان قد أصاب بعض الشيء في تأثير الحرارة على ألوان البشر ولكن إذا استقروا في إقليمهم لآلاف السنين . والكثير من الآراء التي ورثها وساقها إلينا عشعشت وفرخت في أذهان الكثيرين من السابقين ولا يزال البعض يعتنقها حتى يومنا هذا . وكان لتلك الآراء مردود سيء جداً على سكان أفريقيا - وخاصة الزنوج والحاميين - فقد استرقت أوروبا وأمريكا الأفارقة فيما يعرف بتجارة المثلث - بين أفريقيا وأمريكا وأوروبا ، وعوملوا في الرق أسوأ معاملة عرفتها البشرية ، فقد كانوا في نظر الأوروبيين أقل من الحيوانات العجم التي أشار إليها ابن خلدون . ثم تبنت ألمانيا على عهد هتلر نفس الأفكار وعاملت الأفارقة على أنهم مثل القرود - بل وحديثاً قالت ممثلة ألمانيا إلى مؤتمر السكان بالقاهرة ١٩٩٤ كلاماً شبيهاً بذلك . وكذلك فعل السكان البيض في جنوب أفريقيا عندما سادت نظرية الأبرثيد ، فمنعت بنصوص الدستور أي نوع من المساواة بين البيض والسود - لا في الحقوق المدنية ولا في الكنيسة . ولحد ما فعلت روديسيا الجنوبية (زمبابوي حالياً) . وكل ذلك كان نتيجة لآراء الإغريقية التي تبناها بعض العلماء العرب مثل ابن خلدون الذي قال :

«وجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الأناس قريبة من أحوال البهائم» .

ولا شك أن هذه الآراء كانت قد وجدت دعماً مما ذُكر في التوراة - العهد القديم . ونسب خطأ إلى نبي الله نوح عليه السلام بعدما قيل إنه غضب على ابنه حام ودعا عليه وعلى نسله (الذي هو كنعان) وقال : «**ليكن كنعان عبداً لهم**» وحاشى لنبي الله أن يدعو على ذرية ابنه - بل على أي عبد من عباد الله بالاسترقاق . وعلى أي حال فإن الآراء التي ذُكرت في التوراة عن هذا

الاسترقاق هي من قبيل استعلاء بني إسرائيل على كل الخلق غيرهم ، وهو نفس شعور الاستعلاء عند الإغريق والرومان على من خالفوهم حضارة - كذلك نقول عن شعور أوروبا وأمريكا حالياً .

وكانت **المقدمة الخامسة** تحت عنوان : «**في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ألوان البشر وأخلاقهم**» . وفي هذه المقدمة يقول :

> ***«الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران ، وفيها الأراضي الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة ، فسكانها في شظف من العيش»*** (المقدمة ، ص ١٢٨) .

ولا شك أنه يُحمد لابن خلدون أن يبين أن اختلاف الإنتاج وبالتالي رغد العيش أو شظفه يرجع إلى عوامل طبيعية وبشرية . فالعوامل الطبيعية للخصب زكاء المنابت واعتدال الطينة . ولكنه لم يفسر ما المقصود بذلك على وجه الدقة ، وإن كنا قد نفسر زكاء المنابت بالأرض التي بها تربة خالية من الأملاح الضارة بالنبات وليس عليها مستنقعات . أما اعتدال الطينة فربما قصد بها جودة التربة كأن تكون تربة طينية أو غرينية . أما العوامل الطبيعية للشظف فقد تكون الأرض حَرَّة - وهي أرض الطفوح البركانية والتي ليس عليها متفتتات ، بل أرض صلبة وشديدة التضرس - وكذلك أرض الصحراء الرملية . ونلاحظ أن ابن خلدون لم يُدْخل في الخُصب أو الشظف أثر الحرارة أو اختلافها ولا الأمطار ولا وفرة المياه أو عدمها - وهي عوامل هامة للنبات . أما العوامل البشرية فقد أجملها في كلمتين اثنتين فقط «**وفور العمران**» ولنا أن نفسر ذلك بما نشاء ، ولا بد أن ندخل في ذلك وفرة الأيدي العاملة ، وربما رأس المال أيضاً . ثم تحول ابن خلدون من موضوع الخصب الذي عالجه

بكثير من الاقتضاب إلى موضوع الغلاء والذي عالجه بشيء من الإسهاب فتحدث عن وفرة الغذاء وعلاقته بالصحة والذكاء واللون وقبح الأشكال . قال :

«*فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش . . . يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم . . . إن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة . . . ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه ، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة . وعلى العكس من ذلك نجد أن الفاقدين للخصب من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم أبعد عن الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات . .*» (المقدمة ، ص ص ١٢٨ - ١٢٩) .

ونلاحظ في هذه المقدمة الخامسة نقطتين : **الأولى** : أن ابن خلدون ابتعد عن قانونه «**الإفراط والاعتدال في الحرارة**» فلم يتحدث عن تأثير الحرارة في الإنتاج . **والثانية** : على الرغم من القصور في تفسيره لما يحدث من كثرة الأكل وما سماه صعود الأبخرة للدماغ ، فإننا نتفق معه - كما هو قد اتفق مع السابقين أن كثرة الأكل لدرجة التخمة مضرة بصحة الإنسان . غير أننا نختلف معه في تعميم كلامه عن السكان . فليس كل سكان التلول ولا غالبيتهم يغالون في الأكل حتى تجيء إليهم البلادة والغفلة والانحراف . فمن السكان من يقتصر في غذائه امتثالاً لنصائح دينية كما عندنا نحن المسلمين ، وإلى نصائح طبية قديمة أو حديثة كما نجد في أوروبا وأمريكا . وابن خلدون يقول :

«*وأصل ذلك كله أن تعلم أن الأغذية وإتلافها أو تركها إنما هو بالعادة*» (المقدمة ، ص ١٣١) .

ولذا فلا نجد شعباً كله أو جله يتصف بالبلادة حتى وإن كان في وفرة من العيش . وقول ابن خلدون ينطبق على الأفراد وليس على المجموعات .

علاقة نحلة المعاش بأحوال الأجيال الاجتماعية

نتحدث هنا عن آراء ومعلومات تهم الجغرافيين حسب تخصصاتهم الدقيقة الحديثة، وإن كانت تشترك مع تخصصات أخرى مثل علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والإدارة وهذه الآراء والمعلومات لم ترد ضمن المقدمات السابقة، ولذا فنعتقد أنها كانت في نظر ابن خلدون في صلب كتاب **«المقدمة»** ونجد هذه الآراء والمعلومات ابتداءً من الفصل الثاني من الباب الأول. ولسوف ننتقي الأجزاء التي تهم الجغرافيين ونترك ما بقي لأصحاب تخصصاتهم.

ابن خلدون والبدو

جاء في بداية الفصل الثاني الحديث عن البدو والحضر. وبنى نقاشه على القانون الهام الذي وضعه وقال فيه:

«اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش».

وفسر ذلك القانون بأن:

«اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري وبسيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من ينتحل الفلح من الفراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاة والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو، لأنه متسع لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح

للحيوان وغير ذلك . فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم» (المقدمة ، ص ١٦٥) .

ونحن نرى أن ابن خلدون في مبدأ حديثه قد خلط بين البدو وبين الزراع . ونرى كذلك أنه من الضروري أن نفرق بين الاثنين لأن ذلك التفريق ضروري للنقاش لأن ابن خلدون يتحدث عن نشأة الدولة وارتباط ذلك بالبدو . ولهذا فلا بد أن نرجع لمعنى البداوة أولاً . فقد جاء في ابن منظور تحت مادة (بدا) :

«*وقيل لبادية بادية لبروزها وظهورها . . وفي الحديث لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية . . . قال هو الذي يكون في البادية ومسكنه المضارب والخيام ، وهو غير مقيم في موضعه . .*» (ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٤ ، ص ص ٦٥ - ٧٠) .

فنحن نرى من تعريف ابن منظور أن البدو ظاهرين في بدايتهم ، غير مستقرين ويسكنون المضارب والخيام ، وهم غير سكان القرى . فالزراع هم في الغالب الأعم سكان القرى على اختلاف شكل القرية أن تكون مبعثرة المساكن أو مجمعة لها ، وقد تكون قرية صغيرة أو كبيرة . وللزراع على هذا الأساس صفات اجتماعية أو اقتصادية تختلف من صفات البدو . فالزراع مقيمون ومرتبطون عاطفياً واقتصادياً بالأرض . ويساعد في رسوخ هذه العاطفة أن للزارع في فناء كل قرية مقابر يدفنون بها موتاهم ويزورون تلك القبور حتى وإن انتقلوا إلى قرية أخرى . وليس للبدو هذه العاطفة لأنهم متنقلون ، ويحدث الدفن حيث تحدث الوفاة . والزراع غالباً يكونون مسالمين لا يجنحون للحرب إلا للدفاع عن أنفسهم ، ولهم صناعات كثيرة . وليس مصادفة أن نشأت صناعة الفخار عند الزراع وليس عند البدو . نجد الزراع غالباً يتركون آثاراً تدل عليهم وتساعد الدارسين الذين يأتون من بعدهم على دراستهم . ولكن البدو لا يتركون شيئاً سوى بعض العظام وآثار مواقد النار ، حتى لقد قيل إن البدو لا

حضـارة لهم . وابن خلدون نفسـه يشير في مكان آخر إلى أن البـدو لا وطن لهم ، فيقول :

«وأيضاً هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ، ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم سواء على السواء» (المقدمة ، ص ١٩٢) .

وربما كان الخلط الذي حدث عند ابن خلدون بين البدو والزراع أن ابن خلدون كان يرى قاسماً مشتركاً بين الزراع وبين القائمين على الحيوان إذ أن كلا المجموعتين تشغلان أنفسهما بما هو ضروري ، ولا كمالي عندهم ، ولذا فإن تجربته مع البربر تساعده على ذلك الخلط لأن غالبية البربر كانت تمارس شبه البداوة حيث يقوم الزراع على الحيوان أيضاً .

ومن الإنصاف لابن خلدون أن نذكر أنه قد فرق بين الزراع وبين أنواع البدو من حيث الاستقرار والظعن وليس من حيث الصفات التي تساعد أو لا تساعد على الاجتماع البشري . فنجده يقول :

«فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن ، وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال ، وهم عامة البربر والأعاجم . ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في تلأعلب لارتياد المسارح والمياه لحيوانهم إذ التقلب في الأرض أصلح لها ، ويسمون شاوية ، ومعناه القائمون على الشاه والبقر ، ولا يبتعدون فيالقفر لفقدان المسارح الطبيعية . وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة . وأما من كان معاشهم من الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الإبل في قوام حياتهم عن مراعي

الشجر بالقفر وورود مياهه المالحة ، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هواته وطلباً (لمفاحص) النتاج في رماله ، إذ أن الإبل أصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً وأحوجها إلى ذلك الدفء» (المقدمة ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧) .

من الملاحظ أن ابن خلدون قد نسي الزراع بعد ذلك وانصب حديثه عن البدو بمعنى البدو الرعاة ، وليس في كتاب «**المقدمة**» شيء خاص بالزراع . ثم انتقل ابن خلدون إلى فصل آخر عنوانه : «**البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وإن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها**» .

ولا بد أن نوافق ابن خلدون إذا قصد من معنى البدو الإنسان في مبدأ حيته عندما كان جامعاً للغذاء . وكان يسكن في براز من الأرض ، وكان متنقلاً حسب وجود الصيد والغذاء . ولكن إذا قصد بالبدو البداوة الرعوية كما يفهم من سياق الكلام وقصره في صفحات كثيرة على البدو الرعاة فإنا نختلف معه ، ونقول إن الزراعة وسكنى القرى هي الأقدم في سلم الحضارة وفي سلم النشاطات الاقتصادية التي مارسها الإنسان بعد أن كان جامعاً للغذاء . ثم جاءت البداوة الرعوية بعد ذلك ، والسبب في ذلك أن استئناس الحيوان كان متطلباً أساسياً للبداوة الرعوية ، فلا بداوة رعوية بغير حيوان مستأنس . واستئناس الحيوان حدث عند الزراع المستقرين . ثم نقول إن البداوة لم تنشأ أو تَسُدْ في كل مكان في العالم ، ولكنها خاصية من خواص المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية من المناطق الحارة كما هو الحال في الوطن العربي ، وكذلك في بعض المناطق الباردة مثل شمال أوروبا ، حيث يوجد اللاب رعاة الرنة ، وقد نقلت في بعض الأوقات إلى مناطق السافنا في أفريقيا . وحتى في الوطن العربي لم تسُد البداوة على ضفاف الأنهار ، حيث نشأت الزراعة وترعرعت ، وكانت سبباً في قيام الحضارة . ولا يوجد دليل على أن البداوة مُورست أو

سادت في غرب ووسط أوروبا على الرغم من أن الفصائل الجرمانية مثلاً كانت تربي الحيوانات ولكن تحت ظروف الاستقرار ومع ممارسة الزراعة . وهذا يقودنا إلى أن ابن خلدون لم يستقرئ الظواهر التي تحدَّث عنها عند كل الأمم ، بل كانت تجربته محدودةً بمجتمعه وبما وصله من علوم السابقين ، وهي أيضاً علوم محدودة .

إننا لا نعرف على وجه اليقين متى بدأت الزراعة ولا متى بدأ الإنسان يكون له سكن مستقر ومبني . وكذلك لا نعرف تاريخاً لبداية البداوة الرعوية . غير أن الدراسات الآثارية (آركيولوجي) الحديثة اكتشفت معدات في وادي النطوف - منطقة أريحا[٧] بفلسطين يرجع تاريخها لحوالي ٩٠٠٠ سنة خلت (سبعة ألف سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام) . ويعتقد أن تلك المعدات كانت تستعمل في الزراعة . غير أن سكان وادي النطوف كانوا يسكنون الكهوف في ذلك الوقت ، ولم يجد العلماء أي دليل على أن السكان هناك كانوا يربون الحيوانات (ASHLEY, M. 1960. pp. 98) . ثم جاء بعد ذلك استئناس الحيوان الذي كان المتطلب الأساسي لنمو الرعي البدوي . ويعتقد بعض العلماء أن الزارع هو الذي قام باستئناس الحيوان ، وبذا يكون قد خلط بين الفلح والقيام على الحيوان . وكذلك بينت الآثار أن أول مستعمرة زراعية اكتشفت حتى الآن كانت في جارمو (Jarmo) في الجزء الجنوبي الأدنى من جبال كردستان . فقد اكتشفت حقول للشعير والقمح وبعض الآلات الزراعية . وكان سكان جارمو يربون الحيوانات - الماعز والأغنام والخنزير والأبقار (ASHLEY, p. 99) ، وكانت لهم قرى بنيت من الطين ويرجع تاريخها إلى ٧٠٠٠ سنة مضت . ولكن فيما بعد تطورت منطقة أريحا لتصبح بها أول مدينة في التاريخ . ويعتقد المؤرخ المشهور آرنولد توينبي أن البداوة ظهرت في فترة جفاف تعرف بـ (Sub-Boreal) ضربت المناطق شبه الجافة ، فكانت استجابة الإنسان على نوعين : جزء من

السكان انتقل إلى مناطق أكثر رطوبة - ضفاف الأنهار - واستمر في ممارسة الزراعة ، وجزء آخر قبل التحدي واستمر في المناطق التي أصبحت جافة يرعى الماشية وينتقل معها إلى حيث يوجد الكلأ والماء ، وبذا ظهر الرعي البدوي . ولما جاء توينبي بفكرته هذه وجد معارضة على أساس أنه لم تكن هناك فترة جفاف تستدعي ظهور البداوة الرعوية . غير أن الدراسات الحديثة بينت أنه بالفعل كان هناك جفاف قبل حوالي ٤٥٠٠ - ٥٠٠٠ سنة مضت (Grove, 1990, p. 29) ، ولا شك أن الذين انتقلوا إلى ضفاف الأنهار طوروا الزراعة ، وتطلب ذلك التطور تنظيماً للري ، احتاج ذلك إلى تعاون لتنظيم عملية الري ، ثم إلى أجهزة لحفظ الحقوق والأمن والدفاع ، فنشأ الملك - الذي سماه ابن خلدون *(الوازع)* . ولهذا قال كثير من العلماء أن الحضارة بدأت على ضفاف الأنهار في المناطق الجافة وشبه الجافة .

أما البدو الرعاة فلم يحتاجوا إلى تعاون ، والقدر البسيط من التعاون الذي احتاجوا له كان للسطو والغزو أو لدفع أذى الآخرين . وذلك التعاون لم يحتاج إلى ملك وإن كان قد احتاج إلى أن يكون هناك زعيم للقبيلة ، وما كان البدو الرعاة يطيعونه في كل الأوقات . ويظهر ذلك حتى في تاريخ شمال أفريقيا عندما غزاها بنوا هلال . فقد أراد المعز بن باديس الصنهاجي - حاكم أفريقيا استمالة الأعراب فاستشار أحد زعمائهم وهو مؤنس بن يحيى الصنباري المرداس . ولكن مؤنس أشار عليه ***«بأنا لا يفعل ذلك لقلة اجتماع القوم على كلمة ، وعدم انقيادهم إلى الطاعة»*** . (إدريس ١٩٩٢ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣) . وعلى أي حال لم يكن هناك داع لتعاون البدو في الناحية الاقتصادية حيث أنه لم يحدث - إلا نادراً جداً تنظيم للمراعي أو مصادر المياه - فقد نظم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعض المراعي لرعي إبل الصدقة ، ولكن فكرة الحمى للمرعى ترجع إلى ما قبل الإسلام .

ولذلك فنحن نختلف مع ابن خلدون في قوله :

«ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضرو متقدم عليه ، إنا إذا فتشنا أصل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراره ، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر . وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها» (المقدمة ، ص ١٦٧) .

وكما اختلفنا مع ابن خلدون في أيهما أسبق البداوة الرعوية أو الفلح ، كذلك نختلف معه في أيهما كان أصل الحضر . فابن خلدون يقول :

«فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ، ولا تنتهي إلى الترف والكمال إلا إذا كان الضروري حاصلاً . فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة . ولهذا نجد التمدن غاية للبدو يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها» (المقدمة ، ص ١٦٧) .

في نقاشنا لابن خلدون نقول إن الزراعة – الفلح – هي الأصل في الاجتماع البشري . فبالمشاهدة نجد أن الزراع يسكنون في قرى – وقد يكون السكن متفرقاً Dispersed أو متجمعاً Conglomerated – ولكن في الحالتين هي قرى . ولا نجد هذه الظاهرة في المجتمع البدوي الذي يكون السكن فيه في خيام متنقلة ، والوحدة فيه هي الأسرة الممتدة ، وهذه الخيام تكون بعيدة من بعضها حتى لا يكون هناك تناقس في المرعى . ثم إن البدو يجنحون إلى أن يكونوا مكتفين ذاتياً ، ولا يكون بينهم تجارة ، وإن نشأت تجارة فهي مع سكان القرى من الزراع ، أو أن البدو يتحصلون على الحبوب التي يحتاجون إليها عن

طريق الغزو والاسترقاق . ووضع الزارع مختلف في هذه الناحية . ففي الإقليم الواحد تنشأ عدة قرى . وعلى الرغم من أن الإنتاج في القرية البدائية يون بسيطاً وهو للضروري نجد أن التجارة بين القرى تنشأ وتنمو : أولاً تكون بين القرى المتجاورة ولكن بعد ذلك تمتد حتى للقرى البعيدة . وهذا ما وجده علماء الآثار في أريحا - المنطقة التي وجدت بها المعدات التي يظن أنها كانت تستعمل في الزراعة - وقد أشرنا إليها سابقاً . وحسب الاكتشافات الأثرية يُظن أيضاً أن أريحا هي أقدم مدينة في التاريخ ، وقد كانت مسورة بسور ضخم من الحجارة ، وخارج السور كانت توجد الحقول الخصبة ، كما كانت لها تجارة مع عدد من المدن الأخرى - وبعض تلك المدن كانت على مسافة بعيدة ، (Ashley, pp. 99 - 100) . ولذلك نقول إنه بالمشاهدة وبواقع الدراسات الأثرية فإن الزراعة وليست البداوة الرعوية هي أصل الاجتماع البشري - الحضارة أو التمدن .

وفي هذا الفصل الثاني من الباب الأول نجد ابن خلدون يعطي فصلاً في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر . وعلى الرغم من أن هذا الفصل هامشي جداً بالنسبة للجغرافيا فإنا نعلق عليه لأنه قد يكون ذا أهمية - ولو محدودة للجغرافيا السياسية . فقد ذكر ابن خلدون أن البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر . فيقول :

«والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحيطهم ، والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تهيعهم هيعة ولا ينفر لهم صيد ، فهم غارون آمنون ، قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم

الأجيال ، ونزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم ، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة . وأهل البدو ولتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي ، وبُعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم» (المقدمة ، ص ١٧٠) .

ونحن نلاحظ من هذا النص أن ابن خلدون لم يُعرف الشجاعة ولا أشار إلى ميادينها : هل الشجاعة في ميدان القتال؟ أم الشجاعة في قول الحق؟ أم هي النصح للسلطان . . . إلخ؟ أما ماذا؟ على أي حال نفهم من سياق الكلام أن المقصود بالشجاعة هي الشجاعة في ميدان القتال وإن كان هذا لا يمنع تطابق الشجاعة في ميادين مختلفة من قول الحق وخلافه . كذلك نحن نلاحظ أن ابن خلدون قد خلط بين الشجاعة والخشونة . مما لا شك فيه أن البدو أكثر خشونة من أهل الحضر . كذلك قد يكون ما قاله أكثر انطباقاً على عصره ، ولكن ليس بقانون . ففي عصر ابن خلدون وعلى العصر العباسي بشكل عام أزاح الخلفاءُ والأمراءُ العربَ - بدواً وحضراً - من الجيش ومن المناصب الهامة في الدولة واستعاضوا عنهم بالمرتزقة من الفرس والترك والرقيق وأشباههم للدفاع عن الملك وعن الوطن بشكل عام . ونجد ذلك حتى عند غزو بني هلال لأفريقيا . فإن جيش الحكومة كان يفتقر إلى الروح النضالية فاشترى الأمير العبيد وأوسع لهم العطاء ، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك ، (إدريس ، ١٩٩٢ ، ص ٢٥٢) . ولذا فإننا نجد السكان الأصليين قد «تُركوا» . وعليه فقد ركنوا إلى الرفاهية والدعة وفارقتهم الخشونة . غير أننا نجد في وقتنا الحالي الكثير من أهل الحضر قد تربوا على حبهم لوطنهم والدفاع عنه . ولذا فهم على قدر كبير من الشجاعة . فعلى سبيل المثال فقد تميز اليابانيون والألمان - وكلاهما أهل حضر - بالشجاعة كما تروى قصصهم

أثناء الحرب العالمية الثانية . وما لنا نذهب بعيداً وعندنا الفلسطينيين الذين يقومون ببطولات انتحارية ضد الإسرائيليين . وكذلك فعل بعض اللبنانيين . وليس الفلسطينيون ولا اللبنانيون من البدو . ونجد كذلك الشيشانيين يقاومون روسيا بكل أسلحتها الفتاكة ، حتى لقد سويت غروزني - عاصمتهم - بالأرض وهم لا يزالون يقاتلون . وكذلك فعل الأفغان . والشعب الذي تكون له قضية ويربى على حب وطنه وعلى إيمانه بقضيته بظهر من الشجاعة ما تذهل الآخرين . كذلك الأمم التي لها نظم تجنيد إجباري وتجهز شبابها على التدريب الشاق والقتال وتربي فيه القيم الأصيلة تتميز بالشجاعة والإقدام حتى وإن كان معظم سكانها من سكان المدن . أما الذين تركوا دفاعهم إلى غيرهم فينطبق عليهم قول ابن خلدون . وفي نقاشنا لابن خلدون ينبغي ألا ننكر شجاعة الحضر ونقصرها على البدو ، ولذا فنحن نعتقد أن المقارنة في غير محلها . وصدق ابن خلدون حينما قال : ***«إن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه»*** .

ابن خلدون والدولة

ثم تحدث ابن خلدون حديثاً جيداً عن نشأة الدولة وانهيارها . ورأيه يمكن أن يكون رأياً صائباً في الجغرافيا السياسية . والرأي مبني على قانونين : **الأول** : أن الملك يبنى على العصبية . وفي حالة العرب فإن العصبية القبلية وجدت مدداً من الإسلام ، وفي رأيه أن الأمة كلما كانت وحشية كلما كان ملكها أوسع . ونحن لا نوافقه على أن العرب متوحشون كما سيأتي ، كما لا نوافقه على ربط الملك الواسع بالتوحش . صحيح أن بعض الامبراطوريات - مثل امبراطورية التتار - بناها قوم اشتهروا بالوحشية ، ولكن هناك امبراطوريات غيرها بناها أقوام جرت العادة ألا نصفهم بالتوحش ، بل قد يصفهم البعض بأنهم مراكز الحضارات ، والأمثلة كثيرة : الامبراطورية الرومانية ، ثم في العصور الحديثة امبراطوريات البرتغال ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وفرنسا . والقانون . **الثاني** : هو أنه

إذا ذهب الملك عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته إلى شعب آخر منها ما دامت له عصبية . وقد استدل ابن خلدون بما وقع في أمم سابقة ، فقال :

«لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود ، ومن بعدهم إخوانهم من العمالقة ، ومن بعدهم إخوانهم من حمير ، ومن بعدهم إخوانهم من التبابعة من حمير أيضاً ، ومن بعدهم الأذواء كذلك ، ثم جاءت الدولة لمضر . . . وأصلهذا كله إنما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الأجيال ، والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره» (المقدمة ، ص ١٩٤) .

ويريد ابن خلدون أن يقول إن الدولة بمعنى القطر (State) باقية . ولا شك أن هذه ظاهرة سياسية باقية حتى يومنا الحاضر . فمصر وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا - على سبيل المثال - ظلت دولاً على اختلاف الأسر التي حكمتها . ويمكن أن تستبدل بعصبية الدم عصبية الأحزاب والمصالح الشخصية ، وكذلك بعصبية الأفكار التي يبنى عليها النظام . وهذه العصبيات يمكن أن تكون إلى زوال إذا فسدت وحدث بها الاستبداد كما كان الوضع بالنسبة للشيوعية ومن قبلها النازية والفاشية ، وكما يحدث لحكم الفرد أياً كان نوعه . كذلك ليس بالضرورة أن تكون العصبية مؤيدةً أو معارضةً على طول الخط ، فقدتتدخل عوامل دينيةٌ أو اقتصاديةٌ أو اجتماعيةٌ تؤدي إلى اختلاف التأييد . على سبيل المثال ما ذكره (المسعودي ، مج ٣ ، ص ٩٥) من أن قحطان أيدت مروان بن الحكم ضد عبدالله بن الزبير الذي حاربت معه نزار في موقعة مرج راهط . وقد اختلفت التحالفات في آخر عصر بني أمية ، فقد أيدت نزار مروان بن محمدوخالفته اليمانية ، وكذلك فقد كان في سجن مروان بعض زعماء بني أمية كما كان به بعض زعماء بني هاشم (المسعودي ، مج ٣ ، ص ص ٢٥٦ - ٢٦٥) .

ابن خلدون واندثار الأمم المغلوبة

غير أن ابن خلدون أعطى فصلاً في أن الأمة إذا غلبت وصارت في مملكة غيرها أسرع إليها الفناء . وقد جاء في هذا الفصل بآراء يمكن أن تناقش على مستوى الجغرافيا السياسية وكذلك جغرافية السكان . ونقدُنا لابن خلدون ينصبُّ على أن الأمم إذا غلبت لا تموت ولا تندثر إذا كان لها موروث حضاري . فاليابان غُلبت ولكن كان سندها موروثها الحضاري الذي تتمسك به . وكذا الجزائر عندما احتلها الفرنسيون وحاولوا أن يفرضوا عليها اللغة والثقافة الفرنسية ، وذلك على الرغم من أن بعض الجزائريين كانوا مولعين بالتشبه والاقتداء بالفرنسيين . أما علاقة بعض آراء هذا الفصل بجغرافية السكان فلأن ابن خلدون يفسر ذلك ويقول :

> *« . . . ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقتصر الأمل ويضعف . والتناسل والاعتمار إنما هو من حدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية . فإذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو إليه في الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم . . . وقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة ، وأنها لا تساعد إذا كانت في مملكة الآدميين»* (المقدمة ، ص ١٩٦) .

وضرب ابن خلدون مثلاً بأمة الفرس قبل الغزو الإسلامي فقال إنها قد ملأت الأرض كثرة . ولكنهم :

> *«لما تحصلوا في مملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا»* (المقدمة ، ص ١٩٦) .

وفسر هذا التناقض لا بظلم حاق بهم *«وإنما هي طبيعة الإنسان إذا غُلب على أمره وصار آلة لغيره»* (المقدمة ، ١٩٦) .

ونحن نختلف مع ابن خلدون فيما ذهب إليه . فليس هناك أي دليل نظري أن الإنسان لا يسافد ولا ينجب إذا غُلب على أمره وصار آلة لغيره . فالوقائع التاريخية كلها لا تؤيد ما ذهب إليه صاحب «المقدمة» . فقد استعمرت روما كثيراً من بلاد الشرق ، وحكمت كل جنوب أوروبا وبريطانيا ، وحكم الإنجليز الهند ، وحكمت هولندا أندونيسيا ، وحكمت إسبانيا أجزاء كثيرة من أمريكا الوسطى والجنوبية ، وحكم الأوروبيون البيض جنوب أفريقيا ، ولم يصلنا عن أي من هذه الأجزاء أو غيرها أن الإنسان امتنع عن التسافد والإنجاب ، مع أن بعض أنواع الاستعمار كان من القسوة بمكان ، فقد استرق الإسبان كل مجموعات الهنود الحمر في المكسيك وخلافها ولم يحدث ما زعم ابن خلدون . غير أن ابن خلدون زعم أن أعداد الفرس تناقصت ، بل زعم أنهم *«دثروا كأن لم يكونوا»* . وعلى أي حال إذا كان ذلك قد حدث بالفعل فيكون لسبب آخر مثل تفشي وباء أو حدوث مجاعة . وهذا يستدعي الاستقصاء التاريخي وليس هذا البحث محله . وربما يكون ابن خلدون قد شاهد في شمال أفريقيا بعض الرقيق الذين جلبوا من أفريقيا أو بعض السلاجقة والفرنجة في إسبانيا ، ولكنهم كانوا يسافدون وينجبون وفي ذلك ما يدحض رأيه ، وإزاء هذا التناقض أسرع فقال :

> *«ولهذا إنما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم ، وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه ، أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والفرنجة بالأندلس فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق ، لما يلقونه من الجاه والرتبة والاصطفاء»* (المقدمة ، ص ص ١٩٦-١٩٧) .

والحقيقة فإن أمم السودان كانت تقاوم الرق ، ونحن نسمع ونقرأ عن قصص هروب كثيرة قام بها الرقيق في أمريكا - ولكن إلى أين كانوا يفرون وبينهم وبين أوطانهم في أفريقيا مياه المحيط الأطلسي؟ ومن الغريب أن ابن خلدون ذكر الجلالقة والفرنجة بالأندلس مع أنه قد امتدحهم من قبل فقال :

«يبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم» (المقدمة ، ص ١٢٣) .

ابن خلدون والعرب

إن دراسة البداوة الرعوية تهم الباحثين في الجغرافيا البشرية كما تهم الباحثين في علم الاجتماع ، وكذلك تهم الباحثين في علوم أخرى بشرية وطبيعية . وينصب اهتمام الجغرافي في البداوة أنها منشط اقتصادي يستعمل موارد بشرية [الإنسان] وأخرى طبيعية [ماء وكلأ وأرض] لإنتاج لحوم وألبان وجلود وصوف وأشياء أخرى اقتصادية ، كذلك يهتم الغرافي بعلاقات البدو بالمجموعات البشرية الأخرى من زراع وصناع وغيرهم وذلك عن طريق التجارة بينهم ، وكذلك علاقة البدو بتنظيمات الدولة . ولذا فيحق لنا مناقشة ابن خلدون فيما ذهب إليه .

وفي خمسة فصول حَمل ابن خلدون على العرب - كما حمل من قبل على أمم السودان - . وعلى الرغم من أنه أثبت لهم بعض الصفات الحميدة مثل سرعتهم في قبول الحق إلا أنه عاد ووصفهم بأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وأنهم إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب ، وأن العرب أبعد الناس عن سياسة الملك . وليس من أهداف الباحث الدفاع عن العرب ولكنه يناقش من وجهة نظر جغرافية قوانين جاء بها ابن خلدون . وأهمية نقاش هذه القوانين تكون ذات شقين : الشق الأول يأتي مع السؤال : هل ابن خلدون عندما يحمل على العرب ، يفعل ذلك لأنهم ينتسبون إلى عرق من الأعراق

البشرية؟ أم لأنهم يمارسون لوناً من ألوان النشاط الاقتصادية البشرية؟ ففي الجغرافيا البشرية - كما في علم الاجتماع ليس هناك فرق بين عرق وآخر، وأن الفروقات التي نراها على جسم الإنسان هي فروقات سطحية، لا دخل لها بالذكاء أو بالمقدرة على العمل. وإحقاقاً للحق لا نجد فيما كتبه ابن خلدون أي إشارة للعرق. ويعتقدون بعض العلماء وعلى رأسهم د. علي عبدالواحد وافي أن ابن خلدون قصد بالعرب «البدو» (علي عبدالواحد وافي، ص ص ٢٣٥ - ٢٤٢). ويمثل ذلك قال ساطع الحصري في دفاعه عن ابن خلدون في أعمال مهرجان ابن خلدون (١٩٦٢م، ص ص ٤٩١ - ٥٠٠). غير أنه في نفس المهرجان تحدَّث عبدالعزيز الدوري فذكر أن ابن خلدون يقصد بالعرب «البدو» ولكنه أحياناً يستعمل كلمة عرب ليقصد بها الحضر من العرب (عبدالعزيز الدوري، ص ص ٥٠١ - ٥٢١).

وعلى أي حال فإن النقاش حول من قصده ابن خلدون بكلمة «البدو» لا يهم كثيراً لأنه في اعتقادنا أن الذين دافعوا عن ابن خلدون، وقالوا إنه قصد «البدو» قد أخطأوا، وذلك لسببين: الأول أن البدو هم أصل العرب ومدد الإسلام. والسبب الثاني أن الكثير من اتهامات ابن خلدون للبدو كانت في غير محلها كما سنبين ذلك بعد قليل.

والقانون الذي استعمله ابن خلدون ليصف العرب هو قانون أن اختلاف الأجيال في أحوالهم يكون باختلاف نحلتهم من المعاش. والمعاش هنا البداوة التي تؤثر في سلوك وأخلاقيات الإنسان - كما يفعل قانون الإفراط في الحرارة والبرودة.

هذا ونلاحظ ابتداءً أن ابن خلدون يصف البدو بأنهم أقرب إلى الشجاعة من أهل المدن، وأنهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى.. وذلك لسلامة طباعهم. ولكنه بعد ذلك يصفهم بأنهم متوحشون، وصار التوحش

جبلـةً وخُلقاً لهـم ، كـأنما انتقلت الصفات الاجتماعية إلى صفاتٍ موروثةٍ . فهو يقول :

«*ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيـال نبـذوا الدين فنسوا السياسة ، ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة ، فتوحشوا كما كانوا ، ولـم يبق لهـم من اسـم الملك إلا أنهم من جنس الخلفـاء ومن جيلهم*» (المقدمة ، ص ٢٠١) .

فهذا القول يوحي بأن ابن خلدون ينظر إلى التحضُّر والملك عند البدو وكأنه لباس يلبس فإذا بلي وتمزق ظهر جسم الإنسان بشكله الطبيعي .

ثم يفسر ابن خلدون أسباب التوحش بقوله :

«*وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى المزاحمة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم ، فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما سهل عنه . . . والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية ، باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلة . . . فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له*» . (المقدمة ، ص ١٩٧) .

ونلاحظ هنا نقطة عابرة ، وهي أن ابن خلدون يناقض نفسه فقد ذكر من قبل أن البدو أقرب للشجاعة من الحضر ، ص (١٧٠) ، ولكننا لا نرى في القول السابق أي نوع من الشجاعة ، فهم يغزون ويفرون ولا يذهبون للمزاحمة ولا يركبون خطراً . ولكن النقطة الهامة أنه يكتفي بوصف العرب [البدو]

بالتوحش بل يعطي الانطباع بأنهم يفسدون ولا يصلحون وأنهم يجنحون للإيذاء والتخريب كأنهم من جنس غير جنس بني البشر - أو على الأقل أنهم ليسوا أسوياء في جميع تصرفاتهم - فنجده يقول :

«فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدور ، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ، ويعدونه بذلك . والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذون الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون [السقف عليها] لذلك ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. هذا حالهم على العموم . . وأيضاً طبيعتهم انتهاب ما في يد الناس . . . وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد . . . وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة . . . وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه ، وأقفر ساكنه ، وبدلت الأرض فيه غير الأرض . فاليمن قراها خراب إلا قليلاً من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وأفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم . . . بعدما كان بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً» (المقدمة ، ص ص ١٩٧ - ١٩٩) .

وفي نقاشنا لابن خلدون نورد عدة نقاط :

أولاً : تحامله على العرب [البدو] وخاصة في الطريقة التي وضع بها **«قانونه»** إذ أنه جنح إلى التأكيد في أكثر من موضع وذلك باستعمال تعابير مثل : **«هذا حالهم على العموم»** وقوله : **«من لدن الخليقة»** كما أورد أمثلة لما زعمه من خراب .

ثانياً : لو كانت البداوة كما زعم - وكما تتمثل في العرب - لما كانت جديرة بالحياة في أي وقت من الأوقات ، بل كان ينبغي مطاردتها بلا هوادة والتخلص منها. ولكن للبداوة أنصار في الماضي وفي الحاضر . فهذا أحد خطباء العرب بين يدي كسرى أنو شروان يصف أخلاق العرب عندما سأله كسرى : **ما أخلاقهم؟** قال :

«العز والشرف والمكارم وقرى الضيف وإذمام الجار ،وإجارة الخائف ،وأداء الحمالات ، وبذل المهج في الكرامات ،وهم سراة الليل ، وليوث العيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وشنفوا الضراعة ،لهم الأخذ بالثأر ، والأنفة من العار والحماية للدماء» (المسعودي ، جـ ٢ ، ص ١٢٢) .

وهذا أبو العلاء المعري - وهو أبعد الناس عن البدو يقول :

الموقدون بنجد نار بادية   لا يحضرون ، وفقد العزف والحضري

وهذا أبو الطيب المتنبي يقول :

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وفي وقتنا الحاضر كتب كثير من علماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع يحبذون استمرار البداوة لأنها أنسب السبل لاستغلال الموارد الطبيعية في المناطق الجافة وشبه الجافة[٨] ولكن هذا لم يمنع بعض المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من الدعوة للتخلص من البداوة[٩] ، وآخرين دعوا إلى تغيير بعض أساليب البداوة[١٠] .

ثالثاً : في الرد على أوصاف العرب كما ذكرها ابن خلدون نقول : في البدء فإننا لا ننكر بعض الصفات التي عند البدو - عرب وغير عرب - وذلك

نتيجة عملهم في الصحراء ، وأنهم دائمي الترحال ، فاكتسبوا خشونة الصحراء ، وأنهم ليسوا في حاجة إلى إنشاء قرى أو مدن ، وذلك ديدنهم من قديم الزمان فالبجة مثلاً ليست لهم قرى (ابن حوقل ،ص ١٥١) ، والتتار كانوا متنقلين كما وصفهم الراهب غليوم دو روبروك (عبدالرحمن حميدة ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧) ، وكما وصفهم ماركو بولو (ترجمة جاويد ، ص ١٩٧) ، وأن العرب بمعنى البدو ليست لهم تقاليد عريقة في الملك .

ولكن بعد ذلك ، وفوق ذلك ، نقول إن البدو هم من بني البشر ، وهم أسوياء ، ويستطيعون التكيف مع الأوضاع المستجدة ، وإن زال عنهم الملك فليس بالضرورة أن يرجعوا إلى البداوة كما كانوا . كذلك من الناحية العملية فلم يرد إلينا أن العرب في أي وقت من الأوقات خربوا مدناً مسكونة ليستفيدوا منها بالحجارة أو الأخشاب في أثافي القدور أو عمل الأوتاد . ولكن ربما يُقبل بشيء من التحفظ القول إنهم استفادوا من المباني القديمة والمهجورة والمتناثرة في الصحراء وشبه الصحراء . ونقول ذلك لأنه أسهل للعربي أو لغيره أن يبحث عن حجارة لأثافي القدور من أن يقتلع حجارة من مباني قديمة وإن كانت متداعية . فابن خلدون نفسه يقول إنهم يبحثون عن الأسهل . وما يقال عن الحجارة يقال أيضاً عن الأخشاب التي بالسقوف . ولكن يمكن أن يكون من المنطق أن العرب إذا وجدوا حجارة أو أخشاباً ملقاة على الأرض ظنوا ألاّ حاجة للإنسان بها فاستعملوها بالطريقة التي ذكرها ابن خلدون .

ثم إن استشهاد ابن خلدون بقرى اليمن وعراق العرب والشام غير صحيح ، وبالتالي يصبح قانونه غير صحيح ، فقد خُربت الكثير من قرى اليمن بعد انهيار سد مأرب وليس عند دخول العرب إليها . وقد أشار القرآن الكريم لذلك الخراب فقال عز من قائل :

﴿ فأعرضـوا فأرسنا عليهـم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، فسيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (سورة سبأ ، الآيات ١٦ - ١٨) .

أما الشام والعراق فقد ازدهرت بهما الحضارة على عهد بني أمية وبني العباس على التوالي . ومما يذكر أن نظام الري - الذي يمكن أن يؤخذ على أنه مقياس جيد للنمو الاقتصادي واستتباب الأمن - قد تطور تطوراً كبيراً في العراق على عهد العباسيين . ويمكن أن نقول إنه في السنين الأولى لفتح العراق والشام لم تكن الأمور واضحة بكشل كبير ، فتكون أحوال العمران قد اعتراها بعض الفتور . ولكن تلك كانت فترة قصيرة جداً وسرعان ما سارت تلك البلاد في طريق الازدهار .

أما موضوع الخراب الذي أصاب أفريقيا وينسب إلى بني هلال وبني سليم فإن الكثيرين من الباحثين قد أخذوا برأي ابن خلدون دون نقاش فوقعوا في أخطاء فاحشة . ولذا فقد وقف الباحث الحالي عند هذا الموضوع ليبين بعض جوانبه الهامة .

نقول بصفة عامة إن الخراب الذي يضرب منطقة ما لا يرجع بالضرورة إلى العرب - البدو - ولا لمجموعات متوحشة أخرى . ويمكن أن نأخذ بعض الأمثلة لمجموعات غير متحضرة ، وأخرى يطلق عليها أنها متحضرة ، ولكن في كلتا الحالتين أحدثوا خراباً لأسباب معينة . فالفايكنج من شبه جزيرة إسكندنافية ، والقبائل الجرمانية من أواسط أوروبا ، وكانوا يعرفون بالبرابرة -

كانوا لعدة قرون يغزون ويخربون مناطق في غرب أوروبا . وكانت القبائل الجرمانية أحد أسباب انهيار الدولة الرومانية . كذلك نجد في وقتنا الحالي الأمم المتحضرة من إنجليز وألمان وفرنسيين ويابانيين اشتركوا في أعمال تخريب كبيرة جداً في بلاد بعضهم أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية . وكذلك عندما دخل الفرنسيون دمشق خربوا أشياء كثيرة ، منها ما يعرف بحي الحريق بدمشق ، وقد أبقي عليه اسمه رغم أنه قد أعيد بناؤه - حتى يكون شاهداً على وحشية الفرنسيين - . وأنكى من ذلك أن المستوطنين الفرنسيين عندما علموا أن الجزائر على وشك أن تنال استقلالها - عام ١٩٦٢م - مارسوا ما يُعرف بسياسة الأرض المحروقة ، فجعلوا يخربون كل ما طالته أيديهم من مظاهر حضارية ، كان من ضمنها مستشفى مصطفاي للأمراض الصدرية ، ثم قتلوا مَن به من مرضى الأمراض الصدرية والذين لم يكن باستداعتهم الدفاع عن أنفسهم بأي شكل من الأشكال . ولذا فنقول إن الإنسان المتحضر والمتوحش على حد سواء قد يقوم بأعمال تخريبية واسعة إذا كان في حالة حرب أو شعر بأنه فقد الأمل في مصدر رزقه أو قوميته .

بعد هذا نأتي لما زعم أنه تخريب على أيدي بني هلال وبني سليم . فالدراسات الجغرافية الحديثة قد بينت أن خراب أفريقيا لم يحدث على أيدي تلك القبائل ، بل حدث في العهد الروماني . فالمعروف أن المنطقة الداخلية من شمال أفريقيا هي - من زاوية مناخية - تعتبر شبه صحراء ، ونباتاتها مما يعرف بـ [إستبس] . فهي مناطق قليلة الأمطار ، والأمطار السنوية متذبذبة جداً . ولذا فالإستبس لا تصلح للزراعة الموسمية - التي هي أساساً الحبوب من قمح وشعير . وقد بينت الدراسات الجغرافية المبنية على الصور الجوية والدراسات الحقلية التي قام بها البروفسور هورست منشنق والبروفسور فؤاد إبراهيم - من جامعة هامبرج بألمانيا - أن الرومان توسعوا في الزراعة في شبه الصحراء

تلك . ولأهمية الموضوع نلخص مجمل النتية التي توصل إليها العالمان وينقل بعض المقاطع بنصها ، يقول فؤاد إبراهيم :

«منذ أكثر من ألفي عام بدأت عملية التصحر في إقليم الإستبس التونسي . فلا شك أن الأشجار التي كانت تنمو في الإقليم ، والتي لم يتبق منها إلا شجيرات متناثرة من البلوط [بستاسيا أطلانتيكا] قد راحت ضحية الفينيقيين والرومان الذين بنوا أساطيلهم البحرية من شجر شمال أفريقيا ، وأدفأوا حماماتهم بخشبها . هذا بالإضافة إلى الاستهلاك اليومي لسكان المنطقة الذين ما زالوا - يجمعون البقية الباقية من فروع الأشحار ليوقدوا بها النار للطبخ وعمل الشاي .

وتدل الصور الجوية في منطقة الإستبس التونسية على وجود آثار كثيرة تبين تقسيم الأرض التي كانت مزروعة أيام الرومان ، محاطة ببقايا معاصر الزيتون وخزانات المياه [الماجن] ومخازن الغلال .

وما تزال تطلق على هذه الأماكن كلمة [هنشير] ومعناها الحقل في حين أنها أراضي جرداء ليس فيها عشب ولا ماء ، وحتى تربتها ضحلة مغطا بالحصى [حصبة] . . . .

فيما قبل العصر الروماني كان غطاء الإستبس التونسي غني وغزير إلى حد ما . . . .

في العصر الروماني بدأ استعمال إقليم الإستبس التونسي وتحويله إلى مناطق زراعية . وقد صحب ذلك إزالة الغطاء النباتي الطبيعي رويداً رويداً لتحضير الحقول لزراعة الغلال وأشجار الزيتون . وبذا كانت التربة تترك مكشوفة خلال شهور الجفاف الثمانية من السنة ، متعرضة إلى ذريان الطبقة العلوية الخصبة . هذا بالإضافة إلى زيادة حدة البخر بواسطة المياه الجارية نتيجة لإزالة نبات الحلفا .

وباختصار فإنه كانت نتيجة بضع قرون من الاستعمار الاستيطاني أن أزيلت طبقة التربة تماماً ، وظهرت القشرة الجيرية الصلبة إلى السطح . وبما أن هذه القشرة جرداء جرباء اضطر الناس إلى ترك الحقول وهجرتها تماماً . إن مخزن القمح الروماني بتونس قد انتهى تماماً خلال العهد الروماني بها» (فؤاد نجيب إبراهيم ، ١٩٨٣ ، ص ص ٨٣ - ٨٤) .

وهكذا نرى أن الفتح العربي - بما فيه غزو بني هلال وبني سليم لم يكن مسؤولاً عن خراب شمال أفريقيا . بل الحقيقة أن الفتح العربي ساعد التربة على استعادة بعض خصائصها ، وذلك لأن الاستخدام العربي للأراضي تحول إلى نظام الرعي المتنقل [البداوة] . وكما هو معروف إفن الرعي أفضل من زراعة الغلال وأكثر ملاءمة للأقاليم الجافة وشبه الجافة «وهكذا يمكن القول إن العهد العربي قد ساعد على الحفاظ على موارد التربة والغطاء النباتي» (فؤاد إبراهيم ، ص ٨٤) . ويمكن أن نلاحظ هنا أن غلطة الرومان التي أدت إلى تدهور التربة في تونس قد تكررت مرة أخرى مع الاستعمار الفرنسي الذي بدأ عام ١٨٨١م فنشأت الزراعة مرة أخرى ، وتضخم السكان ، وعاد مرة أخرى مسلسل التصحر وذريان التربة وتجمعها في أماكن معينة فتكونت الكثير من النبقات المحاطة بكثبان رملية صغيرة في أعداد هائلة من حقول القمح والشعير . وقد ناقش منشنق ، (١٩٨٣م ، ص ص ٧٣ - ٨٠) ، الموضوع من بعض الزوايا الأخرى ولكنه وصلإ لين فس النتيجة التي وصل إليها فؤاد إبراهيم . كذلك كتب منشنق مقالةً أخرى باللغة الإنجليزية (١٩٧٧ ، ص ص ٧ ى ٤٣) في نفس المعنى الذي كتب فيه فؤاد إبراهيم .

ثم أنه عندما دخل بنو هلال أفريقيا كان هناك خراب آخر غير الذي خلفه الرومان . كان ذلك في برقة **«لما دخل بنو هلال (في سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠ -**

١٠٥١م) أرض برقة وما والاها وجدوا بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل ، لأن زناتة كانوا أهلها ، فأبادهم المُعز حسب رواية ابن كثير والنويري»(إدريس ، ص ص ٢٥١ - ٢٥٢) . أما سبب دخول بني هلال وبني سليم إلى أفريقيا وقيامهم بما نسب إليهم من تخريب فيشرحه إدريس الذي نقل عن ابن خلدون وغيره بالآتي : كانت تلك القبائل العربية بالصعيد المصري على الضفة الشرقية من النيل . وكانوا «مشاغبين» فأراد الخليفة الفاطمي أن يتخلص منهم كما نصحه وزيره «وقد فكر الوزير اليازوري في استخدام تلك الحشود الهمجية . . . فأشار على الخليفة بمصالحة تلك القبائل وتقليدرؤسائها أفريقيا وتوجيه رجالها إلى محاربة صنهاجة» . (إدريس ، ص ٢٤٧) . وعليه فقد أعطاهم الوزير الهدايا «وأطلق أيديهم فيأ قاليم أفريقيا ووعدهم بالعدة والمدد وأمرهم أن يعيثوا في البلاد فساداً . . . أعطيكم المغرب وما يملكه المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق» (إدريس ، ص ٢٤٨) . لذا فقد اندفع بنو هلال إليأفريقيا يخربون لأنهم اعتبروا أنفسهم في حالة حرب مع أمير أفريقيا . وعلى هذا الأساس نعتقد أن حالة بني هلال كانت حالة خاصة لها أمثلة في تاريخ المجتمعات المستقرة : ونذكر في هذا المقام أن بريطانيا في حربها مع إسبانيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت تحرض القراصنة على مهاجمة السفن الإسبانية والاستيلاء عليها أو حرقها أو إغراقها .

ولذا فلا ينبغي أن نأخذ بمثل هذه الأمثلة ونستنبط منها قانوناً مثل القانون الذي ذكره ابن خلدون . فنمط البداوة الرعوية على ما به من خشونة وشظف عيش لا تقود في ظروفها العادية إلى التوحش وإلى التخريب بالطريقة التي ذكرها ابن خلدون . وليس هناك دليل نظري يدل على أن البداوة يمكن أن تجعل الإنسان بالصفات التي ذكرها ابن خلدون . صحيح أن البدو يتميزون بالخشونة ، وقد يجنحون للغزو عندما لا تكون هناك حكومة قوية وذلك لفقر

الصحراء من الموارد ، ولكنهم بعد ذلك يمكن أن يعيشوا في أمان متى ما توفرت لهم سبل العيش رغم استمرارهم في بداوتهم . إذاف فالموضوع ليس مهنة البداوة ولكن فقر الصحراء هو الذي يؤثر .

ابن خلدون والعمران الحضري والترف والصناعات والأسعار

الباب الرابع من المقدمة كان بعنوان : «**في البلدان والأمصار والمدن وسائر العمران الحضري وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق**» . وقد تميز ذلك الفصل بالأصالة ، وعمق التفكير ، وسعة الاطلاع ، وقوة التحليل ، والربط . وجاء فيه بكثير من القوانين عن العمران الحضري والصناعات والأسعار مما جعل الفصل ثرياً في أفكاره ومثيراً للنقاش عند عدد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية . ولا شك أن المشتغلين بالجغرافيا البشرية في فروعها المختلفة - جغرافيا سياسية - جغرافية المدن وجغرافيا اقتصادية وغيرها يجدون فيه الكثير الممتع مما يهمهم ، ويستطيعون أن يقارنوا بين أفكار ابن خلدون وبين مبادئ الجغرافيا الحديثة في المجالات التي أشرنا إليها .

إن بحث ابن خلدون في العمران الحضري يبدأ حقيقةً مع بداية الباب الأول من كتاب «**المقدمة**» ، وذلك عندما ذكر «**أن الإنسان مدني بالطبع**» أي لا بد من الاجتماع الذي هو المدنية ، وهو معنى العمران . ولكن تفصيل الكلام جاء في الباب الرابع من المقدمة ، وهو حديث مركز شمل المدن والأمصار والترف والأسعار . وكلها مرتبطةٌ بعضها ببعض . وسنلاحظ أن ابن خلدون ينظر للمدنية وكأنها كائن حي ، تولد ثم تنمو ، ثم تتعرض لأمراض تؤثر فيها اضمحلالاً أو اندثاراً ، وإن كان في كثير من الأحوال يحدِّد لها شبابها .

الفصل الأول من هذا الباب كان عن أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها توجد ثانية بعد الملك . وهذا الفصل متسق مع فصل سابق أشار فيه إلى

أن البدو أقدم من الحضر . والنقطة المركزية في نقاش ابن خلدون في هذا الفصل كانت عن : لما كانت الأمصار والمدن ذات هياكل وأجرام عظيمة فإنها تحتاج إلى كثرة اجتماع الأيدي وكثرة التعاون ، والملك ضروري لأنه يسوقهم إلى ذلك ، وبين أن هناك علاقة قوية بين نشأة الدول وقيام المدن وعمرها والسكان وتشييد المصانع ، فيقول :

«*فعمر الدول حينئذ عمر لها . فإن كان أمد الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت ، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منقسمة ، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة*» (المقدمة ، ص ٤١٣) .

ولا شك أن ابن خلدون يقصد بالمدينة هي التي نسميها المدينة الأولى والتي تكون عاصمة للدولة ، ولا يعني مدينة أخرى أو مدن أخرى داخل الدولة . ولذا فحياة المدينة مرتبطة بحياة الدولة أو الأسرة الحاكمة . وإذا كان عمر الدولة مديداً عاشت المدينة طويلاً . وضرب ابن خلدون مثلاً بمدينة بغداد التي نمت واتسعت حتى أصبحت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ، ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لإفراط العمران (المقدمة ، ص ص ٤١٣ - ٤١٤) . غير أن ابن خلدون استدرك وجاء بقانون هام استثنى فيه أن يكون بالضرورة عمر بعض المدن مثيلاً لعمر الدولة ، وذلك في حالتين : **الحالة الأولى** أن يكون ظهير المدينة غنياً ، وعبر عن الظهير بكلمة «بادية» . **والحالة الثانية** أن ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الولين ملك آخر ودولة ثانية تتخذ المدينة عاصمة ويستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها ، فهو يقول :

«*وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة ، فإما أن تكون لضواحي*

تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائماً ، فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة . . . وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً أو كرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها» (المقدمة ، ص ٤١٤) .

غير أن ابن خلدون لم يتعرض لنقطتين هامتين في جغرافية المدن ومواقعها .

أولاً : لم يتعرض لما نسميه حاكمية الموقع . فبعض المواقع تكون ذات أهمية بالغة لأنها تتحكم في طرق المواصلات بجانب أنها في منطقة ذات موارد طبيعية غنية . ومن المدن العربية القديمة مدينتي القاهرة ودمشق . ومن المدن العالمية الأخرى مدينة لندن التي تقع على نهر التيمز وتتحكم في طرق المواصلات إلى الشمال وإلى الجنوب وإلى الغرب ، بجانب أنها ميناء طبيعي هام . فالمدينة بمثل هذه الصفات قد تستمر لحاجة الناس إليها وليس بالضرورة لحاجة النظام الحاكم . وفي كثير من الأحوال - كما في الأمثلة السابقة تتحد حاجة الناس مع حاجة الدولة لاستمرار المدينة .

ثانياً : وسطية المدينة ، وهي من الأهمية بمكان إذ نجد حالياً عدداً من الدول قد نقل عاصمته إلى مواقع أكثر وسطية بقدر الإمكان . ومن الأمثلة على ذلك باكستان والبرازيل ونيجيريا . فقد نقلت العواصم إلى إسلام آباد وبرازيليا وأبوجا على التوالي . ومن الإنصاف لابن خلدون أن نذكر أنه قد أشار إلى موضوع الوسطية ولن في موضوع آخر . فقد قال :

«ولا بد من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق» (المقدمة ، ص ٤٥٣) .

ثم إن ابن خلدون أشار إلى علاقة هامة بين المدن الكبيرة وبين السكان - والأيدي العاملة وذلك لاجتماع الفعلة وكثرة تعاونهم . وزاد على ذلك أن الهياكل العظيمة لا تشتغل ببنائها دولة واحدة وإنما عدد من الدول على التتابع وذلك *«في حشر الفعلة والأيدي العاملة»* .

وعن المواقع التي تبنى فيها المدن ذكر أنه لا بد أن يراعى فيها :

« . . . دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع وتسهيل المرافق له . . .» (المقدمة، ص ص ٤١٨ - ٤١٩) .

ثم فصّل دفع المضار بالحماية إذ أن الحماية في نظره تأخذ الأشكال التي نلخصها بالآتي :

- أن يدار على منازلها جميعاً سياجاً ،
- أن يكون في موقع ممتنع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعرة في جبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها . وفي المناطق الساحلية أن تكون بين جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد ،
- أن تكون محمية من الآفات السماوية بأن يكون هواؤها طيباً .

أما جلب المنافع فقد فسره بوجود :

* الحطب .
* الماء العذب .
* المرعى الطيب .

وفي نقاشنا لهذه الشروط التي يجب أن تراعى نلاحظ الآتي :

أولاً : على الرغم من أهمية الحماية وأن الأسوار كانت معروفة في الماضي إلا أن الدولة لا تستطيع عمل سور لكل مباني المدينة التي أفرطت في التمدد ، وبغداد تعطي المثال الحي لذلك .

ثانياً : إن بناء المدن في موقع ممتنع من الأمكنة له مضار ، ولا يلجأ إليه إلا للضرورة . ومن مضار الأمكنة الممتنعة أنها تكون شبه معزولة ، وتكون صعبة الاتصال مع المدن والأقاليم والقرى الأخرى التي تستعمل المدينة سوقاً . وعلى الرغم من ذلك فإنَّا نعترف أن مدناً أنشئت على ما كان ممتنعاً نسبياً من الأمكنة . ومن أمثلة تلك المدن مدريد وأنقرة .

وقد ركّز ابن خلدون على طيب الهواء ، وربط بين طيب الهواء والتخلص من تعفن الأجسام بتخلخل الهواء وذلك لأن الهواء الساكن لا يذهب بالتعفن ، ثم ربط تخلخل الهواء بكثرة الساكن وكثرة حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج . وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه ويبقى ساكناً راكداً ، وعظم تعفينه ، وكثر ضرره .

غير أن فكرة الساكن والسكان في أنها تخلخل الهواء فكرة خاطئة ، وخاصة في المدن القديمة ذات الشوارع الضيقة التي تنعدم بها الميادين العامة . وذلك لأن كثرة السكان وحركتهم لا تخلخل الهواء ، كما أن كثرة المساكن تقلل بالضرورة من حركة الهواء . وعلى العكس من نظرية ابن خلدون فإن الذي يخلخل الهواء هو الشوارع الفسيحة والميادين الواسعة التي تسمح لتيار الهواء بالانسياب . وبعد ذلك فلا بد من التخلص من النفايات بإزالتها من داخل المدينة إلى أماكن مخصصة لها حيث تعالج بإعادة الاستعمال أو بالحرق أو بالتدوير أو بغير تلك الطرق .

أما طلب المنافع فمن المؤكد أن الماء ضروري لحياة الإنسان والحيوان والزرع ، وكلما كانت المياه العذبة والنقية متوفرة وسهلة الحصول عليها ، ساعد ذلك على قيام واستمرار المدينة إذا توفرت الشروط الأخرى اللازمة للمدينة . أما المناطق التي لا يوجد بها ماء أو أن يكون الحصول على الماء صعباً طول العام أو في فصل من فصول السنة فإنها لا تتناسب مع نمو المدن ،

وإن نشأت بها مدن فتكون مدناً صغيرة ومتباعدة . وقد كان ذلك هو السبب الأساسي في قلة المدن في الإقليمين الأول والثاني في أفريقيا ، وليس كما زعم ابن خلدون - في الفصل الأول من المقدمة - لإفراط الحرارة .

وقد أصاب ابن خلدون في موضوع المزارع التي تكون بالقرب من المدينة وكذلك في موضوع الحصول على الحطب . وقد كان هذان الشرطان من الأهمية بمكان في المدن القديمة . أما حالياً ، ومع تقدم المواصلات ، فإن أهميتهما قد قلت كثيراً عما كانت عليه . فبعض المدن الحديثة والكبيرة تحصل على كثير من الأغذية من خارج إقليمها ، ومن مناطق بعيدة جداً . كذلك نجد الكثير من المدن أصبحت في غير حاجة للحطب ، لأنها تستعمل الكهرباء أو الغاز . وتحصل على الأخشاب لعمل الأثاثات والسقوف من مناطق بعيدة وخارج القطر . غير أن هذا لا ينفي أن أغلب مدن أفريقيا المدارية تحتاج للحطب ، وتجلبه من مناطق بعيدة بعد أن استنفدت شجيرات الحطب المحيطة بها . ولذا يصلها الحطب والفحم بأسعار مرتفعة .

كذلك طيب المراعي لم تعد ذات موضوع لأن السكان في معظم أنحاء العالم لم يعودوا يعتمدون في تنقلاتهم على الدواب ، وبالتالي تلاشت أهمية المراعي التي تحيط بالمدن . وساعد على ذلك أن سكان المدن يجلبون ما يحتاجون من الألبان ومنتجاتها من أماكن بعيدة . فبريطانيا مثلاً تحصل على اللحوم والزبد والجبن من نيوزيلندا واستراليا والأرجنتين وغيرهم[١١] .

ولم ينس ابن خلدون أن يلمز العرب في موضوع تخطيطهم للمدن ، فقال :

> ***«وذلك قلة مراعاتهم حُسن الاختيار في تخطيط المدن كما قلناه : منالمكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي : فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المعبر ورداءته من حيث العمران الطبيعي . والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة ، ولا***

يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثر ، ويسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية : لتنقلهم ي الأرض ، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد . أما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات . وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن . . . فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب كأن لم تكن» (المقدمة ، ص ص ٤٣٣ - ٤٣٤) .

وقد جاء حديث ابن خلدون المذكور كمثال سلبي يدعم به قانونه عن مواقع ونمو المدن - ونظن أيضاً أنه قصد الإشارة إلى أن دور العرب في الاجتماع البشري قليل . ومن هذا المرتكز نناقش صاحب المقدمة ، فنقول إنه قد أصاب في مواضع وأخطأ في أخرى كثيرة .

أولاً : أصاب في وصفه للعرب أنهم يراعون مراعي إبلهم ولا يبالون بطيب الماء والهواء لأنهم متنقلون والانتقال كفيل بحل أي مشكلة عن الماء أو الهواء أو المنابت .

ثانياً : أخطأ في أن المدن المذكورة أنشأها العرب [يقصد البدو والرعاة كما يفهم من سياق الكلام] . وذلك لأن البدو لا ينشؤون مدناً لأنهم متنقلون ، وفي غير حاجة إليها - كما يفهم أيضاً من سياق كلامه .

ثالثاً : أن الذين اختطوا المدن المذكورة هم قواد الجيوش الإسلامية ، ولم يكونوا من البدو على الرغم من أن معظم الجند كانوا من أصول بدوية ، ولكنهم كانوا في حكم المستقرين من يوم أن انضموا للجيش الفاتح .

رابعاً : خلافاً لما ذكره صاحب المقدمة فقد كان تخطيط المدن لهدف معين وهو هدف حربي ، وكان تفكيرهم مستقيماً وكانوا بعيدي النظر ، وقد أدت المدن أغراضها التي من أجلها أنشئت بالكامل . فعندما أنشئت تلك المدن لم يكن الغرض منها هدفاً حضرياً وإنما كانت معسكرات للجيش وإدارته ، ثم تطورت بعد ذلك لتصبح مدناً ، وذلك بحكم أن الإدارة أصبحت بها وسكن بها عدد كبير من الناس ليكونوا قريبين من الحكم .

فالبصرة - المعسكر الأول الذين أنشئ - كان على شط العرب من المدخل البحري للعراق (خريطة رقم ٤) الذي يتكون بالتقاء نهري دجلة والفرات ، وهي بالقرب من الحدود العراقية الفارسية . ولذا كان لا بد من احتلالها حتى لا تلتف الجيوش الفارسية - بحرية كانت أم أرضية - على جيوش المسلمين ، وحتى لا يهب أهل فارس والأهواز لنجدة إخوانهم الذين انهزموا في الحيرة (ياقوت ، ج ١ ، ص ص ٤٢٩ - ٤٤٠) . وفي وقت لاحق عُمرت البصرة وأصبحت مركزاً للعلوم المختلفة ، وسكنها فطاحلة العلماء من أمثال سيبويه والخليل بن أحمد وعدد من الشعراء ، منهم أبو نواس وبشار بن برد . وقد تعرضت البصرة لكثير من الاضطرابات السياسية على عصور مختلفة ، كما نافستها مدن أخرى ، أولاً الكوفة ثم بغداد . وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت البصرة من مدن العراق الهامة ، وهي حالياً أكبر مدينة في جنوب العراق ، ولم يأت عليها الخراب والانحلال *«كأن لم تكن»* كما زعم ابن خلدون . وذلك يرجع إلى أهميتها الاستراتيجية لكونها ميناء هاماً يربط العراق بالهند والصين وشرق أفريقيا . صحيح أنها تقع على مقربةٍ من مستنقعات كبيرة وهواؤها لا يناسب من تعود على هواء الصحراء الجاف . وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت مدينة ذات شأن من عام ٦٣٨م وحتى يومنا هذا .

أما الكوفة فقد أنشئت معسكراً للجند عام ٦٣٨م ، ولكن بعد إنشاء البصرة

بقليل . وقد قيل في إنشائها أن هواء البصرة لم يوافق العرب الذي تغيرت ألوانهم من جراء ذلك ، فأشار الخليفة الراشد الثاني إلى اختيار مكان آخر يكون مناسباً أكثر للعرب . قد يكون ذلك أحد أسباب اختيار الكوفة ، ولا نرى في ذلك ما يعيب التخطيط إذ أن الجيوش على اختلاف جنسياتها وعصورها تختار المواقع التي تصلح للجند ولا تسبب لهم أمراضاً أو ضعفاً يعوقهم عن أداء مهمتهم . غير أن اختيار الكوفة كان لسبب آخر أكثر أهمية من طيب الهواء . فالكوفة تقع على الجانب الأيمن لنهر الفرات (خريطة رقم ٤) ، ولذلك لا يكون بينها وبين المدينة المنورة - مركز رئاسة جند المسلمين ومقر الخلافة - أي عائق طبيعي . وفي قول عمر - رضي الله عنه - لسعد : « . . . فلا تجعل بيني وبينهم بحراً»[١١] (ياقوت ، ج ٤ ، ص ص ٤٩٠ - ٤٩٤) ، ولذا فلم يكن هناك أي خطر من أن يلتف من ورائها أي جيش معادٍ ، كما كان من الممكن للجيش الإسلامي - إذا دعت الضرورة القصوى - أن ينسحب منها ، كما كان في الإمكان إرسال أي تعزيزات لازمة لها . وبالإضافة إلى ذلك فالكوفة في موقع أكثر وسطية بالنسبة للعراق من البصرة التي تقع في أقصى جنوب العراق . ومن مميزات موضع الكوفة أنه مرتفع عن النهر . وبذا كانت في مجمن من الفيضانات . وعلى الرغم من أن الكوفة تعرضت لكثير من الاضطرابات وخربت على يد القرامطة ، فإنها ظلت عاصمة إدارية للعراق حتى عصر العباسيين حينما أُنشئت بغداد عام ٧٤٩م . ولبغداد مميزات هامة : فهي أكثر وسطية من البصرة ومن الكوفة ، ليس فقط بالنسبة للعراق ، وإنما أيضاً بالنسبة للإمبراطورية الإسلامية ، وأنها محمية من ناحية الشرق بنهر دجلة ومن ناحية الغرب بنهر الفرات ، فلا يستطيع الأعداء الوصول إليها إلاّ على جسر وعلى أي حال ففي فترة الحكم العباسي أصبحت فارس - وليست الجزيرة العربية - هي الأهم بالنسبة للجيش والإدارة . ثم أن بغداد تقع في إقليم غني بموارده الطبيعية ، وتتحكم في النهرين - دجلة والفرات - إذ أن بها أقرب

نقطة بينهما . ولا ننسى أن نقول إن الكوفة ظلت طوال قرنين كاملين مركزاً للعلوم والآداب على الرغم من أنها لم تنشأ في الأصل لذاك الغرض .

وأنشئت القيروان عام ٦٧٠م على موقع قلعة بيزنطية . وكان الهدف من إنشائها أن تصبح معسكراً تنطلق منه جيوش المسلمين لبقية أجزاء شمال أفريقيا . وظلت عاصمة إدارية حتى القرن الحادي عشر الميلادي ١٠٥٢م حينما خربها بنو هلال وانتقلت العاصمة لتونس المدينة . ولا بد أن نذكر أن القيروان كانت عند إنشائها موقعاً استراتيجياً هاماً ، وذلك لأن الجيوش الإسلامية وقت فتح شمال أفريقيا سلكت الطريق الصحراوي (خريطة رقم ٥) ، ولم تسلك طريق الساحل إذ أن طريق الساحل كان عرضة لهجمات الأسطول البيزنطي القوي وقتئذ . وقد قال منشئها عقبة بن نافع «إنما اخترتُ هذا الموضع لبُعده عن البحر لئلا تطوقها مراكب الروم فتهلكها» (ياقوت ، ج ٤ ، ص ص ٤٢٠ - ٤٢١) . وعلى الرغم من تخريب القيروان فإنها ظلت حتى اليوم مدينة صحراوية هامة ومركزاً إدارياً وسوقاً للحبوب والماشية .

وكلمة أخيرة عن تخطيط المدن المذكورة : فقد عاب ابن خلدون على العرب أنهم كانوا يراعون مراعي إبلهم ولا شيء غيره ، ونقول في ذلك إنه حتى لو كان زعم ابن خلدون صحيحاً لكان العرب على حق لأن الإبل كانت وسيلة النقل الأساسية في ذلك الوقت مثلها في ذلك مثل وسائل النقل الميكانيكية في وقتنا الحاضر ، وإنَّ قواد الجيوش في كل زمان ومكان يهتمون اهتماماً كبيراً بوسائل النقل والطرق ، ولم يكن العرب خلاف ذلك . ثم نضيف أن العوامل التي تساعد على نشوء وتطور المدن أو انحلالها أو فقدانها النسبي لأهميتها ليست بالضرورة أن تكون عوامل ثابتة أو قاصرة على العرب ، بل هي عوامل متغيرة وتحدث في كثير من المجتمعات البدوية والمستقرة على حد سواء . فتغيُّر نظام الملك ، أو تبدل طرق النقل ، أو جفاف الماء في الآبار ، أو

التصحر ، . . . إلخ كلها عوامل طبيعية أو بشرية تؤثر في المدن . وهناك أمثلة لمدن كثيرة اندثرت مثل البتراء ، وكوبي (غرب السودان) ، تنكتو على نهر النيجر ، . . . إلخ . وهناك مدن فَقدت بعض أهميتها مثل برلين بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن أي من هذه المدن من إنشاء البدو ، ولا يد لهم في خرابها .

وفي خمسة فصول من ذلك الباب أعطانا ابن خلدون قوانين تبين العلاقة بين المدينة وسكنها وسكانها من جانب وبين الغنى والترف والصناعات والأسعار وتطور الحضارة وتدهورها من جانب آخر . فوصف المدينة في بادئ أمرها بأنها تكون قليلة السكان والسكن ، وأن المباني تكون بدوية ، والآلات بسيطة ، والمكاسب قليلة . ثم شرح ابن خلدون معنى المكاسب فقال إنها قيم الأعمال . وعندما يزداد السكان تزداد الأعمال وتزداد قيم أعمالهم وتكثر المكاسب بالضرورة ، ويؤدي ذلك إلى الغنى ثم إلى الترف الذي من مظاهره التأنق في المساكن والملابس والأبنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وتلك كلها أعمال تستدعي وجود المهرة من الصناع . وذلك يؤدي بدوره إلى زيادة السكان وزيادة الصنائع وبالتالي لزيادة المكاسب وزيادة المتطلبات والترف . وقد أصاب ابن خلدون في ذلك في عدد من المواضع . فيما يختص بنشأة المدينة وأن المباني تكون أشبه بمباني البدو نجد أنه حتى في المدن الحديثة - وخاصة في الدول النامية - فإن المباني والمساكن على أطراف المدينة تكون أشبه بمساكن الريف وذلك لأن النازحين الجدد يكونون في أول أمرهم فقراء ولم يتعودوا على سكن المدن ، فيسكنون حول المدينة وفي الأطراف . وتعرف هذه المساكن في الدول النامية بمساكن الكرتون أو الصفيح أو الأكواخ ، ويعرف ذلك في الأدب الجغرافي الحديث بتريف المدينة Ruralization of land scape Nomadization of land scape وإذا كانت مثل هذه

المساكن كثيرة يطلق عليها مدن الأكواخ Shanty Towns ، ولكن بعد فترة حينما يعتادون على سكنى المدن ، ويحصلون على أعمال تدرب عليهم دخلاً لا بأس به ، ويحدث قليل من الغنى والترف ، فإنهم يهاجرون إلى داخل المدينة - ويعرف ذلك بأنه جزء من عملية بالحراك الاجتماعي . وفي الجانب الآخر فإن بعضاً من الذين حدث لهم ترف يخرجون من داخل المدينة - التي قد تكون مكتظة بالسكان إلى أطراف المدينة ويبنون حياءً فاخرة ، بها الكثير من مظاهر الغنى والترف . وهذا أيضاً جزء من الحراك الاجتماعي . وقد أصبح ذلك ممكناً بسبب تقدم وسائل النقل التي أصبح عن طريقها بُعد المسافة بين أماكن السكن وأماكن العمل غير ذي أهمية تذكر كما في السابق .

وأيضاً قد أصاب ابن خلدون في فكرته عن أنه كلما كبرت المدينة ، وزاد عدد سكانها ، وزادت الأيدي العاملة Labour Force ، واتسعت تخصصاتهم ومع الثراء تزداد القوة الشرائية ويزداد الترف . غير أنه حدث في الدول النامية في الوقت الحاضر أنه مع زيادة عدد السكان والغنى الذي يحدث لطبقة من السكان فإن نسبة لا بأس بها من السكان لا تجد عملاً ترتزق منه وتعيش حياة الفقر والعوز ، ويجنح عدد من السكان إلى الإجرام والفساد الاجتماعي .

ثم تحدث ابن خلدون عن الأسعار وعلاقتها بعدد السكان ، وما تنفقه الدولة على أنصارها ، فجاء في ذلك بما يشبه قانون العرض والطلب . فقد قسم حاجات الناس إلى قسمين : الضروري ، وهي أقوات الناس ، والكمالي ، وهي الحاجات الزائدة عن الحاجة ويشتريها أو يستعملها القادرون من الناس فقط . فإذا كثر عدد السكان رخصت أسعار الضروري من الحاجات لأن القوت من الضروريات :

«فتتوفر الدواعي على اتخاذها ، إذ أن كل واحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله ، لشهره أو سنته ، فيعمم إتخاذها أهل المصر

أجمع ، أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه ، لا بد في ذلك . وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة ، تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر ، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك ، فترخص أسعارها في الغالب ، إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية . ولولا احتكار الناس لها ، لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران» (المقدمة ، ص ٤٣٨) .

ولذا نجد في نظر ابن خلدون - وهذا صحيح - أن السكان يأخذون احتياطاتهم في موضوع الغذاء رغم كثرة الطلب عليه ، ولذا فأسعار المواد الغذائية تكون رخيصة في الغالب - وخاصة عندما يجنح المستهلكون إلى أنواع من التخزين . أما الكماليات فإنها ليست لأهل المصر أجمعين ولا لأكثرهم ، ولكن للقادرين على شرائها ، ولذا يقول :

« . . . ثم إن المصر إذا كان مستبحراً موفور العمران ، كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله ، فيقتصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغاً ويقصر المستامون لها ، وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبذل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرها فيقع فيها الغلاء كما نراه» (المقدمة ، ص ٤٣٩) .

ونحن نرى أن ابن خلدون لم يقصر سبب ارتفاع ثمن بعض الأشياء إلى قلة المعروض منها فقط ولكن أيضاً إلى أنها غير ضرورية وأن المترفين على استعداد لدفع ذلك الثمن العالي .

كذلك تحدث ابن خلدون عن أسعار الأعمال فأرجع أسباب غلائها إلى ثلاثة عوامل وهي :

الأول : كثرة الحاجة لمكان الترف بكثرة عمرانه .

الثاني : اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش بالمدينة بكثرة أقواتها .

الثالث : كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم ، وإلى استعمال الصناع في مهنهم ، فيبذلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها ، فيعتز الفعلة والصناع وأهل الحرف ، وتغلو أعمالهم . (المقدمة ، ص ٤٣٩) .

ثم حاول ابن خلدون أن يفسر ظاهرة ارتفاع الأسعار في المدن عنها في البادية . فأرجع ذلك إلى ما يفرض على أقوات المدن من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب المصر ، وتلك قليلة في البادية . وكذلك فسر ارتفاع أسعار بعض الأقوات بقلة خصوبة التربة التي تُزرع فيها ، فيضطر بعض الزراع إلى إصلاحها بإضافة مواد من الزبل وغيرها ، وتكون تلك نفقات تساهم في ارتفاع أسعار المنتوج ، ثم أشار إلى أن تكلفة المعيشة بالمدينة تكون أعلى مما هي عليه بالبادية . وفسر ذلك بأنه مع كثرة العمران يزداد الترف وتكثر حاجات السكان من أجل الترف .

ولا شك أن ابن خلدون قد أصاب في كثير مما ذهب إليه في هذا الفصل . فعلى سبيل المثال أصبح من المعروف حالياً أن كثرة الضرائب مضرة بالصنائع والزراعة لأنها تتسبب في ارتفاع الأسعار ، فيقل الطلب عليها . وهذه الظاهرة موجودة في كل العالم وتفيض كتب الاقتصاد بذكرها وتحليلها ، ولكنها أكثر ما تكون ظهوراً في الدول النامية حيث تكون دخول الأفراد قليلة ولا يستطيعون شراء كثير من الحاجات ، وربما يقللون من استهلاكهم حتى

للضروريات . غير أن ابن خلدون لم يذكر بعض الأسباب الهامة لارتفاع أسعار الحاجات بالمدن . على سبيل المثال بجانب المكوس والمغارم هناك إيجار المحلات والتي تكون أعلى في المدينة من القرية . وهناك تكلفة المواصلات والعمالة وهي جزء من تكلفة الإنتاج .

ولقد تألق صاحب المقدمة تألقاً ظاهراً ومفلحاً في حديثه عن نمو الحضارة وتدهورها . فذكر أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران . فمع زيادة العمران والغنى والترف تكثر الصنائع بجميع فنونها ، ويقع فيها كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها . ومتى أقبلت الأيام وتعاقبت حذق الصناع صناعتهم ومهروا في معرفتها . غير أن الحضارة تكون أكثر بالقرب من السلطان منها من الأمصار حتى وإن كانت موفورة العمران ، وذلك لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها .

ونجد تفسير ابن خلدون لنشوء الحضارة بكثرة العمران وما يتبع ذلك من ثراء وتفنن في الصنائع تفسير صحيح . كذلك تفسير أن الحضارة تكون أكثر بالقرب من السلطان تفسير صحيح . ونحن نجد الآن - كما كان في الماضي - أن الدول تنفق أموالاً طائلة في تحسين منظر العواصم وبناء الطرق ودور التعليم العالي والمستشفيات ومراكز الإدارة ، وتشجيع الصناعات وبيوت المال وكل مظاهر الحضارة . وكل هذه الأشياء تتطلب الإنفاق على عمليات الإنشاء وكذلك الصرف على القائمين بالإدارة . وهذه المصروفات تعود مرة أخرى لتنفق في التفنن على المباني واللبس والمأكل وخدمات الترفيه .

ثم فسر صاحب المقدمة كيف تبلغ الحضارة غايتها ثم تبدأ في الهبوط . فذكر أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره . فإذا بلغ التأنق في الأحوال غايته - وهي الحضارة - تبعه طاعة الشهوات ، فلا تستقيم النفس في دين ولا دنيا ، لأنه في الدنيا تكثر الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ، ويعجز

الكسب عن الوفاء بها ، ولذلك يكثر فيهم الفسق والشر والبخل على تحصيل المعاش من وجهه وغير وجهه ، ويلجأ بعضهم إلى الكذب والمغامرة والغش والسرقة والفجور . . . (المقدمة ، ص ص ٤٤٥ - ٤٤٦) .

وهناك مفاسد أخرى للحضارة ، يقول :

«ومن مفاسد الحضارة أيضاً الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن من شهوات البطن من المأكل والملاذ والمشارب وطيبها . ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط ، فيفضي ذلك إلى فساد النوع : إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا . . . أو يكون فساد النوع بغير واسطة كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً . . .» (المقدمة ، ص ٤٥١) .

وقد أعطانا ابن خلدون قانوناً وسبباً لفساد الحضارة ، فقال :

. . . لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ، ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك . والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته : إما عجزاً لما حصل له من الدعة ، أو ترفعاً لما حصل من المربي في النعيم والترف . . . والحضري بما قد فقد من خلق البأس بالترف والمربي في قهر التأديب والتعليم ، فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه . . . ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها ، وما تلونت به النفس من ملكاتها . . . إلا في القليل النادر . وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه ، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة . . . فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم من العمران والدول» (المقدمة ، ص ص ٤٥١ - ٤٥٢) .

ونحن نوافقه في تحليله للعوامل التي تؤدي إلى فساد الحضارة واضمحلالها ، وأن الإنسان الذي يفقد اقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره يفقد إنسانيته . ولكن نحن أمام مظهرين في الحضارة الحديثة - كما تمثلها الحضارة الأوروبية في أوروبا وأمريكا والتي زحفت على كثير من البلاد الأخرى : المظهر الأول أن الإنسان أنشأ من المؤسسات القانونية والتنفيذية ووسائل مراقبة الرأي العام ما مكنه أن يحد - ولكن لا يمنع منعاً باتاً - الكثير من أوجه الفساد العام مثل السرقة والرشوة والغش . فالحضري في مثل هذه الحالة يقدر إلى حد كبير على جلب منافعه ودفع مضاره .

ولكن من الناحية الأخرى هناك المظهر الآخر والذي دُرج على تسميته الفساد الخاص الذي يتمثل في أشكال مثل الزنا واللواط وشرب الخمر . ومن المؤسف أن مثل هذه المظاهر أصبحت لا تستنكر بل هي مقبولة في الحضارة الأوروبية الحديثة - حتى أن بعض الكنائس أحلت اللواط والسحاق ، وكان شرب الخمر مباحاً من قبل . ولذا فمن هذه الناحية أصبح الإنسان عاجزاً عن دفع الضرر . ولكن بدأت تظهر بعض البوادر التي تبين أن الإنسان بدأ يعي الأخطار التي تحيط به . فهناك على سبيل المثال استنكارٌ لاستعمال أو إنتاج أو بيع المخدرات . وأصبح القانون يعاقب على ذلك . كما أن ظهور مرض نقص المناعة المكتسب [الإيدز] واكتشاف علاقته بتعاطي المخدرات وباللواط وبالزنا جعل الإنسان يفكر في العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحدث له . غير أنه يبقى على الإنسان خطوات واسعة قبل أن ينطبق عليه قول الله سبحانه وتعالى : **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾** (الإسراء آية ١٦) .

وبعد الحديث عن نشأة الحضارة وانهيارها يرجع صاحب المقدمة فيناقش

مواقع الصناعات وذلك في الفصل الذي عنوانه «**في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون البعض**» . وذكر أن بعض الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه ، لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه . ويكون بعض هذه الأعمال في كل الأمصار للحاجة إليها كالخياط والحداد والنجار . ولكن هناك أعمال خاصة بالترف مثل أعمال الزجاج والصياغة والدهان والطباخة . فهذه تكون في المستبحرة في العمارة ، الآخذة في عواد الترف والحضارة . . . وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع دون غيره . (المقدمة ، ص ٤٥٥) .

ويذكر ابن خلدون أن أمثال هذه الصنائع لا تكون في المدن المتوسطة بل في المستبحرة في العمارة لأنها :

«*إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس ، فسرعان ما تهجر وتخرب ويفر عنها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها*» (المقدمة ، ص ٤٤٥) .

غير أن ابن خلدون في موضع آخر - وهو الباب الخامس وفصل «**في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها**» يستدرك ويصل إلى نتيجة أنه ليس بالضرورة أن يكون المصر مستبحراً حالياً في العمران حتى عندما يكون عنده صنائع الترف . المهم في نظره أن تكون الحضارة أخذت وقتاً طويلاً راسخة في المصر فتستمر فيه صنائع الترف على الرغم من تناقص العمران :

« . . . *لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق . وبقيت صبغتها ثابتة في*

ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية ، حال الصبغ إذا رسخ في الثوب» (المقدمة ، ص ٤٨٤) .

وقول ابن خلدون هذا يشبه النظرية الحديثة - قوة الدفع الجغرافية Geographical Momentum التي تشير إلى أن بعض الصناعات يمكن أن تستمر حتى وإن زالت الدواعي لوجودها . وأمثلة ذلك صناعة الزجاج البلوري [الكريستال] والسجاد العجمي . والتفسير لهذه النظرية أن بعض الأسر ومن ارتبط بها يتوارث المهارات في تلك الصناعات ، وتأخذ صناعتها شهرة كبيرة ويكون الاستهلاك ليس قاصراً على المصر الذي به الصناعة ، ولكن تصدر الصناعة إلى خارج المصر ، وهكذا تكسب الاستمرارية .

وقد كان الفصل الخامس وهو تحت عنوان **«في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يُعرض في ذلك كله من الأحوال وفي مسائل»** . وقد تضمن ذلك الفصل عدة فصول يقع معظمها في مجالات اقتصادية وتأثيراتها الاجتماعية ، وجزء من المبادئ المذكورة في هذه الأبواب تكون ذات أهمية للمشتغلين بالجغرافيا الاقتصادية . ولكن نلاحظ أن بعض المبادئ المذكورة هي في الحقيقة إما تكرار لمبادئ ذكرت في الأبواب السابقة أو شرح لها . فمن المبادئ التي ذكرها ابن خلدون :

« . . . إن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل ، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه في وجوهه» (المقدمة ، ص ٤٦٠) .

ثم ربط - كما فعل من قبل - بين الأعمال والكسب ومن ثم مع العمران فقال :

«واعلم أنه إذا فقدت الأعمال ، أو قلت بانتقاص العمران ، تأذن الله

برفع الكسب ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن، كيف يقل الرزق والكسب فيها» (المقدمة، ص ٤٦١) .

ثم بين ابن خلدون أصناف النشاطات التي يُحصل منها على الرزق فقال :

«إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه، على قانون متعارف، ويسمى مغرماً وجباية . . وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس في منافعهم، كاللبن من الأنعام، والحرير من دوده والعسل من نحله، أو أن يكون من النبات في الزراع والشجر بالقيام عليه . . . ويسمى هذا كله فلحاً . . . وإما أن الكسب من البضائع وإعدادها للأغراض . . . ويسمى هذا تجارة» (المقدمة، ص ٤٦٢) .

ونلاحظ هنا أن ابن خلدون قد دمج تحت قائمة الأعمال الإنسانية الصنائع مثل الخياطة والحياكة وما نسميه نحن حالياً بالخدمات . ولكن ابن خلدون بعد ذلك صنف كل الأعمال تحت تصنيف الصنائع، فقد أعطى فصلاً بعنوان **«في الإشارة إلى أمهات الصنائع»** . وفي ذلك الفصل قسم الصنائع إلى ضروري للعمران مثل الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة، وإلى شريفة بالموضوع كالتواليد والكتابة والوراقة والغناء والطب (المقدمة، ص ٤٨٨) .

وفي الفصل السادس تحدث ابن خلدون عن **«العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق»** . وهذا الفصل كما هو ظاهر من اسمه يخص التعليم بمختلف فروعه، سواء كانت علوم إسلامية أو لغوية أو فلسفية أو علوم تجريبية/ عقلية/ طبيعية/ أو علم غيبية . وهو فصل هام لمن يعمل بالتعليم ولكنه يخرج عن الجغرافيا البشرية،

أو قل إنه هامشي جداً لها . غير أننا نلاحظ بعض النقاط الهامة ، مثلاً أنه يجعل التعليم ضمن الصنائع ، فقد أعطى فصلاً تحت عنوان **«في أن التعليم من جملة الصنائع»** . كذلك فقد رقط ابن خلدون بين كثرة العلوم وبين كثرة العمران وتعظم الحضارة . ويبدو أن ابن خلدون قصد من هذا الفصل أن الحوادث تحدث بمسبباتها المادية – إلا في الأمور الدينية – وليس بما يدعيه البعض من السحر أو صناعة النجوم . فقال عن علوم السحر والطلسمات :

> ***«ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع ، لما فيها من ضرر ، ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كواكب وغيره ، كانت كتبها مفقودة»*** .

ثم أعطى فصلاً في ***«إبطال الفلسفة وفساد منتحلها»*** فقال :

> ***«لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن . وضررها في الدين كثير ، فوجب أن يصدع بشأنها ، ويكشف عن المعتقد الحق فيها»*** .

وفي هذا فإن ابن خلدون في توافق مع منهجه الذي يمكن أن نسميه بالفلسفة الوضعية أو Positivism – والذي يتناسب مع معظم الدراسات الاجتماعية الحديثة – غير أن ابن خلدون لم ينكر بعض المناهج الأخرى – وخاصة الغيبية المرتبطة بالأنبياء – أو في سمو النفس الإنسانية إلى مراتب عليا .

الخاتمة

لماذا نناقش ابن خلدون ، وقد يزعم البعض أن آراءه ومعلوماته الجغرافية وما سمَّاها قوانين قد تجاوزها الزمن؟ وربما عندما نناقشه نحاكمه بلغة غير لغته - بلغة نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين ، ولدينا رصيد كبير جداً من المعلومات التي تواصل جمعها منذ قرون ، وتلك تشمل المجتمعات البشرية في كل أنحاء العالم ، في حين أن ابن خلدون كان يتحدث بلغة القرن الرابع عشر الميلادي ، ولم تكن لديه نفس المعلومات التي لدينا حتى عن مجتمعات كانت موجودةً في زمنه مثل مجتمعات القبائل الجرمانية ، ومثل مجتمعات شرق آسيا. كذلك فإن ابن خلدون لم يزعم أنه جغرافي أو أن حديثه سيكون ذا محور جغرافي ، كما أنه ذكر أن المعلومات الجغرافية التي أوردها قد أخذها عمن سبقوه ، بل إن أكثر الذين كتبوا عنه - أمثال علي عبدالواحد - لم يذكروا أهميته في أبحاث الجغرافيا ، فقد رصد د. علي عبدالواحد وافي ثمانية مجالات نبغ فيها ابن خلدون (ص ١١٥) وهي أنه :

(١) المنشئ الأول لعلم الاجتماع .

(٢) إمام ومجدد في علم التاريخ .

(٣) إمام ومجدد في (الاتوبيوجرافيا) أي ترجمة المؤلف لنفسه .

(٤) إمام ومجدد في أسلوب الكتابة العربية .

(٥) إمام ومجدد في بحوث التربية وعلم النفس التربوي والتعليمي .

(٦) راسخ القدم في علوم الحديث (كتب الحديث ، مصطلح الحديث ، رجال الحديث) .

(٧) راسخ القدم في الفقه المالكي .

(٨) أنه لم يغادر أي فرع من فروع المعرفة إلا وألمَّ به .

فنحن نلاحظ مما كتبه د . علي عبدالواحد وافي أن أبحاث الجغرافيا لم ترد فيما نسب إلى صاحب المقدمة ، وإن كنا نفهم من البند الثامن أعلاه أن ابن خلدون قد ألمَّ بكل فروع المعرفة بما فيها الجغرافيا . غير أن الإلمام لا يعني النبوغ في العلم . وعلى أي حال فنحن لم نقصد محاكمة ابن خلدون لأن المحاكمة ستكون غير عادلة ولكن نقاشنا سيكون من دواع أهمها :

أولاً : أن ابن خلدون طلب أن نناقشه .

ثانياً : أن هناك اتجاهاً لبعض الناس لتقديس الآراء التي وردت لنا في التراث ، وخاصة من العباقرة من أمثال ابن خلدون . وغني عن البيان أن هذا التقديس خطأ ، لأن أمثال هذه الآراء ليست منزلة ، بل هي قابلة للأخذ والعطاء . وعلى أي حال هناك اتفاق بين العلماء أن بعض آراء ابن خلدون الأساسية والاستطرادية غير صحيحة ، ومثال لذلك آراؤه في أخلاق البشر وارتباطها بالإفراط في الحرارة أو الإفراط في البرودة أو الاعتدال . ومثال آخر للآراء غير الصحيحة موضوع عدم التسافد وعدم الإنجاب أو قلته إذا كان الإنسان في الرق ، واندثار الأمم إذا غُلبت . ولكن على الرغم من أن بعض معلومات وآراء ابن خلدون قد عفا عليها الزمن إلا أنها أصبحت بعد تعديلها من أساسيات الفكر والمنهج الجغرافي الحديث . فعلى سبيل المثال فكرة الأقاليم السبعة - وأساسها اختلاف في درجة الحرارة . فقد أصبحت هذه الفكرة أساسية في الدراسات الإقليمية ، ولكنها مبنية على اختلافات المناخ بكل أجزائه - ومنها الحرارة والمطر ، وليس على الحرارة فقط . ثم إن بعض آراء ابن خلدون لا تزال تحتفظ بجدتها وأصالتها ، رغم أننا نختلف معه في بعض التفاصيل . ومن هذه الآراء ما أورده عن نشوء الترف وارتباط الترف بتطور العمران بما في ذلك كثرة السكان ونشوء وتطور المدن والصنائع ، ثم بعد ذلك عندما يصل الترف غايته يكون سبباً في انهيار الملك .

ثالثاً : لعل أهم إسهامات ابن خلدون ليس ما أورده من قوانين عن الإفراذ في الحرارة أو البرودة ، وليس فيما ذكره عن العرب وعن نشوء الدول وانهيارها - ولكن الأهم من ذلك هو المنهج الذي طلب أن يسير عليه في دراسة العمران البشري . فهذا المنهج يهم كل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ومنها الجغرافيا البشرية . وقد لخص طه حسين ذلك المنهج في ثلاثة قوانين وهي : قانون السببية ، وقانون التشابه ، وقانون الاختلاف .

(أ) قانون السببية :

وسماه طه حسين قانون العلة . ومفاده أن الحوادث ومظاهر العمران البشري لا تحدث حسب الأهواء والمصادفات ولكن لها علل - قانون - يربط بين الحدث ومظاهر العمران المختلفة . وهذا هو أساس المنهج الجغرافي الحديث في كل أفرع الجغرافيا سواء كانت طبيعية أو بشرية . وعلى سبيل المثال حدوث الأمطار له قوانينه ، ونشوء المدن أو التطور الزراعي أو الصناعي له قوانينه أيضاً . وهذا هو المنهج العلمي أو الوضعي Positivism . وقد نسب خطأ ليس .Lacey, A. R (١٩٧٦) ، ظهور هذا المنهج إلى أوجست كونت August Cornte الذي نشر آراءه في الفترة بين ١٨٣٠ - ١٨٥٣م . وقد تطور هذا المنهج على أيدي اثنين من العلماء الآخرين هما كرافت .Kraft, U وهانفلينج .Hanfling, O (Johnston ص ١١/ ١٩٨٣) . غير أن د . علي عبدالواحد وافي أشار إلى أن ابن خلدون هو بالفعل المنشئ الأول لهذا المنهج وليس أوجست كونت . غير أننا نلاحظ أن ابن خلدون في تناوله لهذا المنهج قد ركّز عليه تصريحاً لا تلميحاً في الأمثلة التي ضربها حتى صار من رواد الحتمية الجغرافية . ويظهر هذا في تناوله أثر الحرارة على أخلاق البشر سواء كانوا في الأقاليم المفرطة في الحرارة أو المفرطة في البرودة أو في مناطق الاعتدال . والحتمية هنا مرتبطة بالبيئة الطبيعية - أساساً - اختلاف درجة الحرارة . والحتمية هنا امتدت حتى إلى نحلة المعاش وذلك في تناوله للعرب

البدو . ولكن أمثال هذه الحتمية سواء أكانت مستمدة من تأثير البيئة الطبيعية أو نحلة المعاش قد فقدت رونقها وأصبحت قريبة من الاندثار وذلك بعد الضربات التي تلقتها من المنهج الإمكاني Possibilism أو ما يسمى بالاختيار أيضاً الذي طوره فيدال دي لا بلاش . فأصبحت الحتمية - حتى عند من يدينون بها مثل قريفيث تايلور - حتمية مخففة جداً وسماها الحتمية النسبية ، (قريفيث تايلور ، ص ص ٩ - ٤١) . والحقيقة أن الحديث عن قوانين في العلوم الاجتماعية - ومنها الجغرافيا البشرية - يقود إلى الحتمية الجغرافية . ولهذا فإن معظم الجغرافيين لا يتحدثون عن قوانين في الجغرافيا البشرية ولكنهم يتحدثون عن تعميمات حتى يتحاشوا الوقوع في الحتمية .

(ب) قانون التشابه :

إن ابن خلدون لم يتحدث عن مثل هذا القانون بشكل ظاهر وصريح ، ولكننا نستنبط هذا القانون من الأمثلة التي أعطاها . فهو عندما يتحدث عن أقاليم حرارية أو عندما يعطي صفات للبدو من عرب وبربر وعجم فهو يلجأ إلى تصنيفات على أسس معينة - ويعني هذا أن هناك تشابه بين مناطق يمكن أن تحمع في أقاليم ، كما أن هناك مجموعات من البشر يمكن أن يصنفوا حسب نحلتهم من المعاش . وقانون التشابه يستعمل بكثرة في الجغرافيا . ومجرد الحديث عن الجغرافيا الإقليمية يعني أننا نصنف المناطق حسب تشابهها . وهذا لا يقتصر على الجغرافيا البشرية أو الإقليمية ولكنه يشمل أيضاً الجغرافيا الطبيعية ، وكذلك معظم العلوم الأخرى .

(جـ) قانون الاختلاف :

إن الحديث عن التشابه يعني بالضرورة الحديث عن الاختلاف أيضاً . فهناك مثلاً مناطق متشابهة وكذلك هناك مناطق مختلفة . ولكن أكثر من ذلك إذ أنه حتى في المناطق المتشابهة يحدث اختلاف إذا أدخلت عناصر أخرى .

إن ابن خلدون لم يتحدث بصراحة عن قانون الاختلاف، ولكنه في موضعين مختلفين ذكر إمكانية الاختلاف. فعندما تحدث عن سكان الإقليمين الأول والثاني ذكر أن هناك مناطق مثل الحبشة ومالي والتكرور اكتسب سكانها صفات تختلف عن صفت معظم سكان الإقليمين المذكورين، وعزى السبب في ذلك إلى مجاورة تلك الأقاليم للإقليم الثالث. كذلك عندما تحدث عن الهند واليمن وبقية شبه الجزيرة العربية ذكر أن إحاطة الماء بتلك المناطق قلل من إفراط الحرارة، وبالتالي اختلاف سكان تلك المناطق عن أخلاق الأقاليم التي بها.

وفي موضع آخر تحدث عن أن المخلوقات كلها على هيئة من الارتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي . . . وبدأ من ذلك بالعالم المحسوس (الجسماني).

«*وأولاً عالم العناصر المشاهد كيف تتدرج صاعداً من الأرض إلى المياء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعد أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً*» (المقدمة، ص ١٣٧).

ثم أعاد هذه الفكرة في موضع آخر فقال:

«*. . . وأن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تتجاوزها من الأسفل والأعلى، استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسمانية البسيطة . . .*» (المقدمة، ص ٥٧٢).

وقد أشار د. علي عبدالواحد وافي إلى أن ابن خلدون بهذا قد سبق نظرية دارون التي تتحدث عن النشوء والارتقاء. ونحن نستنتج من حديث ابن خلدون أن هناك عوامل تدخل إلى عنصر - أو إلى عالم من العوالم فتغيره عما

كان عليه . وهذه الفكرة عندما نطبقها على الجغرافيا البشرية (وكذلك في كثير من العلوم الاجتماعية) تفسر لنا كيف تختلف بعض المناطق المتشابهة طبيعياً إذا دخل إليهـا عنصـر أو عناصـر بشـرية مـثل رأس المـال أو المـقـدرة التكنولوجية . . . إلخ . وهذا هو الذي يفسر لنا كيف اختلف مثلاً إقليم أواسط كلفورنيا - والذي نصنفه على أنه من أقاليم البحر الأبيض المتوسط (مناخياً) عن إقليم له نفس الصفات الطبيعية - سواء أكان في شيلي أو في جنوب أوروبا أو في استراليا .

* * *

وبعد فهذه الصفحات ليست فقط استجابةً لدعوة ابن خلدون لمناقشة فكره ، وإنما هي دعوة أيضاً للجغرافيين المحدثين لدراسة الجوانب الجغرافية التي تناولها ابن خلدون وغيره من علماء التراث الذين كان لمقدرتهم العلمية وعمق تفكيرهم الباع الطويل في إثراء المعرفة في عالمنا . وبهذه الدراسة نكون قد ربطنا ماضينا بحاضرنا الذي هو رؤيتنا وطريقنا إلى المستقبل الذي نرجوه كريماً وطيباً لأجيالنا الصاعدة .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، والله من وراء القصد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش

(١) حفلت معظم الدراسات عن ابن خلدون بتعريف عنه مقتبس من سيرة ابن خلدون التي كتبها بنفسه . وفي دراستنا الحالية نذكر فقط بعض الجوانب الهامة التي لها علاقة بهدفنا من الدراسة . وهناك متسع لمن أراد الاستزادة في الدراسات الأخرى مثل دراسة د . علي عبدالواحد وافي وساطع الحصري وطه حسين وعبدالله عنان ومحمد طه الجابري . . وغيرهم .

(٢) لا يزال بعض الكُتّاب - ربما عن طريق تمجيد ابن خلدون - يعتقد أنه كان مصيباً في تفسيره لقلة العمران ، وأخلاق وسلوك سكان الإقليمين الأول والثاني بإفراط الحرارة . فعلى سبيل المثال لا الحصر ها هو ذا السيد محمد البدوي في بحثه بعنوان «المورفولوجيا الاجتماعية» (أعمال مهرجان ابن خلدون ، ١٩٦٢م ، ص ص ١٧٧ - ٢٠٢) يقول : «ويؤيد تاريخ الحضارة ما ذهب إليه ابن خلدون من حيث وجود علاقة وثيقة بين درجة الحرارة والعمران» . وقد حاول السيد محمد البدوي أن يجد دليلاً علمياً يؤيده في ذلك فقال : «وذلك لأن الحرارة تسبِّب الاسترخاء والكسل . . . .» .

(٣) احتار ابن خلدون في هذا الاسم : هل هو جبل القَمَر أو القُمُر . ولما كان الكثير من الناس يحتارون مثل حيرة ابن خلدون فإنه إسهاماً منّي في حل هذا اللغز وأقول الآتي : تشير المراجع الإنجليزية إلى أن نهر النيل حسب خريطة بطليموس ينبع من جبل القَمَر . وتعتقد تلك المراجع أن المقصود بذلك الجبل هو جبل رونزوري على هضبة شرق أفريقيا . وتسميه - كما سماه بطليموس Mountain of the Moon - أي جبل القَمَر . ونظن أن الإغريق سموه جبل القَمَر لأنه مكسو بالجليد حتى ليبدو ذلك الجليد من بُعد كأنه قَمَر ، ولذا سمي جبل القَمَر . أما القُمُر فهي قبيلة كانت تسكن الهند وأعطيت ذلك الاسم للجزر التي تقع في الجنوب الغربي من الهند ، وهي حالياً جمهورية جزر القُمُر .

(٤) ذكر د . علي عبدالواحد وافي أن ابن خلدون ربما يكون قد قصد بنيل السودان نهر الكونغو . ونحن نختلف معه في هذا . وذلك لأن خريطة الإدريسي تبين النهر المزعوم على أنه على خط عرض من خطوط عرض السودان . ونهر الكونغو ينبع ويجري في منطقة استوائية ، وأنه لا يخرج من بحيرة ولا يتفرع من نهر النيل . كما ذكر

ابن خلدون أن هنا أمماً ومدناً تقع على ذلك النهر المزعوم ، ومنها سلا وتكرور وغانة ، كما نرى الآن أن هذه الأمم المذكورة تقع كلها في غرب أفريقيا - مالي وما جاورها . ونحن نظن أن المقصود بذلك النهر إما نهر النيجر - ولكنه يصب في خليج غانة من المحيط الأطلسي ، أو نهر السنغال الذي يجري إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلسي . وربما يكون قد قصد نهر بحر العرب والذي هو رافد من روافد نهر النيل الأبيض - يعني يجري شرقاً ويصب في النيل الأبيض ولا توجد عليه الأمم التي ذكرها ابن خلدون . ونذكر أن سكان غرب أفريقيا كانوا حتى عهد قريب يشيرون إلى نهر النيجر على أنه نيل النيجر ، ويبدو أن كلمة «نيل» كانت مرادفةً عندهم لكلمة «نهر» ، والله أعلم .

(٥) ومتابعة لتمجيد بعض الكُتّاب لابن خلدون نجد الميلود الكوني الذيب في رسالته للماجستير يعلّق على موضوع ظهور النبوات في الأقاليم المعتدلة ، وعدم ظهورها في أقاليم الانحراف الحراري . فهو أولاً ينفي علاقة الرسالات بالمناخ ولكنه يستطرد فيقول : «فإن هذه النبوات ظهرت في هذه الأقاليم لأن اعتدال الإنسان فيها يرقى إلى مستوى فهم هذه الديانات والتفاعل معها ، على عكس سكان الأقاليم المتطرفة» (ص ١٢٠) .

ونتساءل نحن من جانبنا بشيء من الاستنكار إن كان أمثال ميلود الكوني الذيب يعتقدون أن فهم عقيدة التوحيد - وهي مركزية في كل الأديان السماوية - يحتاج إلى درجة من الرقي الحضاري . فهل كان من الاستحالة فهم تلك العقيدة لعدم وجود درجة من الرقي في الإقليمين الأول والثاني؟

(٦) مرة أخرى نجد الميلود الكوني الذي يدافع عن ابن خلدون في رأيه عن علاقة الإفراط في الحرارة ، وعلاقة ذلك بالطرب بالإقليمين الأول والثاني فيقول : «رغم أن تعليل ابن خلدون غير مقنع من الناحية العلمية إلا أن الواقع يؤكد وجهة نظره ، حيث أن أهل السودان هم أكثَر الناس انبساطاً وفرحاً وتجاوباً مع الموسيقى ، حتى إن هناك تقليداً في بلاد المغرب بأن يكون العازفون وناقرو الطبول من الأفراد من السودان» (ص ١٢٦) .

والخطأ في رأي الميلود - وذلك ينسحب على ابن خلدون أيضاً - أنه أخذ شريحةً صغيرة من الناس ليصل إلى قانون عام ، وحتى في هذه الشريحة فهو يتجاهل العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تؤثر في سلوك البشر . فمما لا شك فيه أن

العازفين وناقري الطبول في المغرب هم أساساً من بقايا عهد الرقيق ، وأن مهنة الترفيه من غناء وطبل وعزف لم تكن من المهن المحببة للأحرار ، ولذا قام بها الرقيق ، وأصبحت إرثاً اجتماعياً لمن أتى من بعدهم وإن كانوا قد نالوا حريتهم . ونجد مثالاً على ذلك في العصور الإسلامية السابقة وهو أن مهنة الغناء والرقص كان يقوم بها الجواري في بلاط الأحرار والأغنياء ، ولم يكن هؤلاء الجواري من سكان الإقليم الأول أو الكقليم الثاني ، ولكنهن أخذ رقيقاً .

وعلى الرغم من أنه حدث تحولٌ في هذه الناحية إلا أنه لا يزال قطاعٌ كبيرٌ من العالم العربي والإسلامي يستنكر على الفتيات من أصول محترمة أن ينخرطن في مهنة الغناء ناهيك عن الرقص .

(٧) الاسم كما ورد في الكتب والصحف الحديثة هو «أريحا» ، غير أن المراجع القديمة بما فيها ابن خلدون والمسعودي تسميها «أريحاء» .

(٨) من علماء الاجتماع الذين يحبذون استمرار البداوة لأنها أنسب الطرق لاستغلال المناطق الجافة وشبه الجافة طلال أسد (Asad, T.) ، وإيان كنستون (Cunniso, I.) ، ول . ج . هِل (HILL, L. G.) وقد نشروا رأيهم في مقالة مثبتة في قائمة مراجع هذا البحث . كما لهم مقالات أخرى ، وكذلك عبدالغفار محمد أحمد .

(٩) ومن الذين يخبذون الاستقرار الكامل للبدو نجد عدداً من العلماء ومنهم محمد سعيد بيومي في مقالة مثبتة في قائمة المراجع .

(١٠) ومن الذين دعوا إلى إحداث تغييرات في حياة البدو عن طريق توصيل الخدمات للبدو - كاتب هذا البحث في عدد من المقالات - منها مقالة في مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع عشر ١٩٨٦م . وكذلك في مقالة بالمجلة الجغرافية العربية ١٩٧٧م . وفي بعض المقالات الأخرى .

(١١) ناقش عبدالرازق بن حمود الزهراني بعض هذه المواضيع في بحثه «ابن خلدون ونشأة المدن» بالعدد الخامس (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م) من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ص ص ٤٤٢ - ٥٠٥ .

المراجع باللغة العربية

١ - ابن خلدون ، عبدالرحمن : **مقدمة ابن خلدون** . تحقيق وتقديم علي عبدالواحد وافي ، ط ٣ ، دار النهضة للطبع والنشر ، مصر ، ط ٣ ، د . ت .

٢ - ابن خلدون ، عبدالرحمن : **المقدمة ، تاريخ العلامة بن خلدون** . مكتبة ودار المدينة للتوزيع والنشر - الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م .

٣ - ابن خلدون ، عبدالرحمن : **مقدمة ابن خلدون** . تصحيح وفهرست أبو عبدالله المندوه ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٤م .

٤ - ابن حوقل : **كتاب صورة الأرض** - منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (تصوير ١٩٧٩م) .

٥ - ابن منظور : **لسان العرب** .ج ١٤ ، دار الصياد ، بيروت ، د . ت .

٦ - ابن كثير : **مختصر تفسير ابن كثير** :ج ٢ ، اختصار وتحقيق محمد علي صابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧ - إدريس ، الهادي روجي ، (١٩٩٢م) : **تاريخ أفريقيا في عهد بني زيري** . ج ١ ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت .

٨ - الزهراني ، عبدالرازق بن حمود ، (١٤١٢هـ) : «**ابن خلدون ونشأة المدن دراية في علم الاجتماع الحضري**» . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ع ٥ ، ص ص ٤٤٢ - ٥٠٣ .

٩ - السيد محمد بدوي ، (١٩٦٢) : «**المورفولوجيا الاجتماعية وأصولها المنهجية عند ابن خلدون**» في أعمال مهرجان ابن خلدون ، ص ص ١٧٧ - ٢٠٢ .

١٠- الميلود الكوني الذيب ، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) : **الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون** . (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

١١- جاريد ، عبدالعزيز توفيق ، (١٩٧٧) [ترجمة من الإنجليزية] : **رحلات ماركو بولو** . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (في الأصل نقلها إلى اللغة الإنجليزية ونشرها وليام مارسدق) .

١٢- حسين مؤنس ، (١٣٩٩هـ) : «**ابن خلدون جغرافيا**» . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

١٣- حسين مؤنس ، (١٤٠١) : **الإسلام الفاتح** . الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة .

١٤- حسين مؤنس ، (١٩٨٧) : **أطلس تاريخ الإسلام** . الزهراء للإعلام العربي .

١٥- ساطع الحصري ، (١٩٦٢) : «**دفاع عن ابن خلدون**» . في أعمال مهرجان ابن خلدون ، ص ص ٤٩١ - ٥٠٠ .

١٦- شوقي أبو خليل ، (١٩٨٦) : **أطلس التاريخ العربي** . دار الفكر ، دمشق ، ط ٣ .

١٧- طه حسين : «**فلسفة ابن خلدون الاجتماعية**» . (ترجمة : محمد عبدالله عنان) ، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين ، ج ٨ .

١٨- عبدالرحمن حميدة ، (١٩٩٢) : **تطور الفكر الجغرافي** . (تعريب) ، المؤلف رينه كلوزيه .

١٩- عبدالعزيز الدوري ، (١٩٦٢) : «**ابن خلدون والعرب**» . في أعمال مهرجان ابن خلدون ، ص ص٥٠١ - ٥١٥ .

٢٠- علي الوردي ، (١٩٦٢) : «**ابن خلدون والمجتمع العربي**» . في أعمال مهرجان ابن خلدون .

٢١- فؤاد إبراهيم ، (١٩٨٣) : «**الأسباب الجغرافية والبشرية للتصحر في الاستبس التونسية الوسطى وإقليم الساحل السوداني**» في فيرث أوجين وآخرين (ناشرون) دراسات جغرافية ألمانية حول الشرق الأوسط ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٢٢- كراتشكوفسكي ، اغناطيوس : **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** .(ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم) ، ط ٢ ، (١٩٨٧) ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت .

٢٣- القرآن الكريم : - سورة النمل ، سورة الأعراف ، سورة آل عمران ، سورة الإسراء ، سورة سبأ .

٢٤- فريفيث تايلو ، (١٩٨٢م) : الفصل الأول «مجال البحث في هذا الكتاب» . **الجغرافيا في القرن العشرين** ،(ترجمة : محمد السيد غلاب ، ومحمد مرسي أبو الليل) ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٢٥- محمد عبدالله عنان ، (١٩٣٣م) : «**ابن خلدون والنقد الحديث**» . المقتطف ، مج ٨٣ ، ج ٥ .

٢٦- محمد طه الجابري ، (بدون تاريخ ؛ : **ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة** . دار النهضة ، بيروت .

٢٧- مصطفى محمد خوجلي ، (١٩٧٧م) : «**الأسس الاقتصادية لاستقرار البدو**» . المجلة الجغرافية العربية .

٢٨- مصطفى محمد خوجلي ، (١٩٨٦م) :«**حياة البدو الرعاة في شمالي أفريقيا والسودان**» . عالم الفكر ، الكويت .

٢٩- المسعودي :**مروج الذهب ومعادن الجوهر** . (تحقيق محمد محدي الدين عبدالمجيد) ، ج ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .

٣٠**المقتطف** . (١٨٨٦م) : «شذور الإبريز في نوابغ العرب والإنجليز ابن خلدون المغرب وهربرت سبنسر الإنجليزي» .

٣١- منشنق ، هـ . ، (١٩٨٣م) : «**الإنسان والبيئة في المغرب ، مشاكل ومخاطر استغلال الموارد الطبيعية**» فيرت أوجين وآخرين - مرجع رقم (١٠) .

٣٢- ياقوت الحموي :**معجم البلدان** .ج ١ ، ٤ ، دار الصياد ، بيروت ، د . ت .

المراجع باللغة الإنجليزية

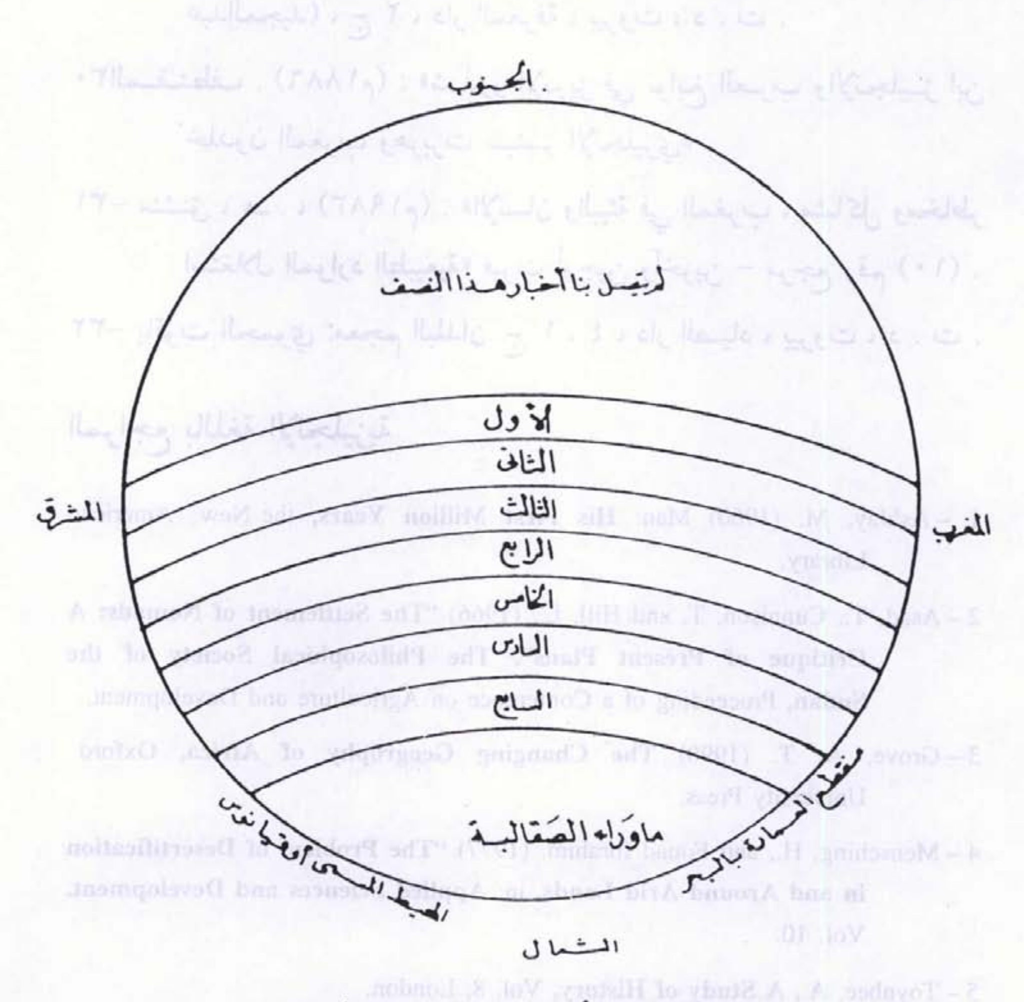
1 – Ashlay, M. (1960) Man: **His First Million Years,** the New American Library.

2 – Asad, T., Cunnison, T, and Hill, L., (1966) "**The Settlement of Nomads: A Critique of Present Plans". The Philosophical Society of the Sudan,** Proceeding of a Conference on Agriculture and Development.

3 – Grove, A. T. (1990) **The Changing Geogrophy of Africa,** Oxford University Press.

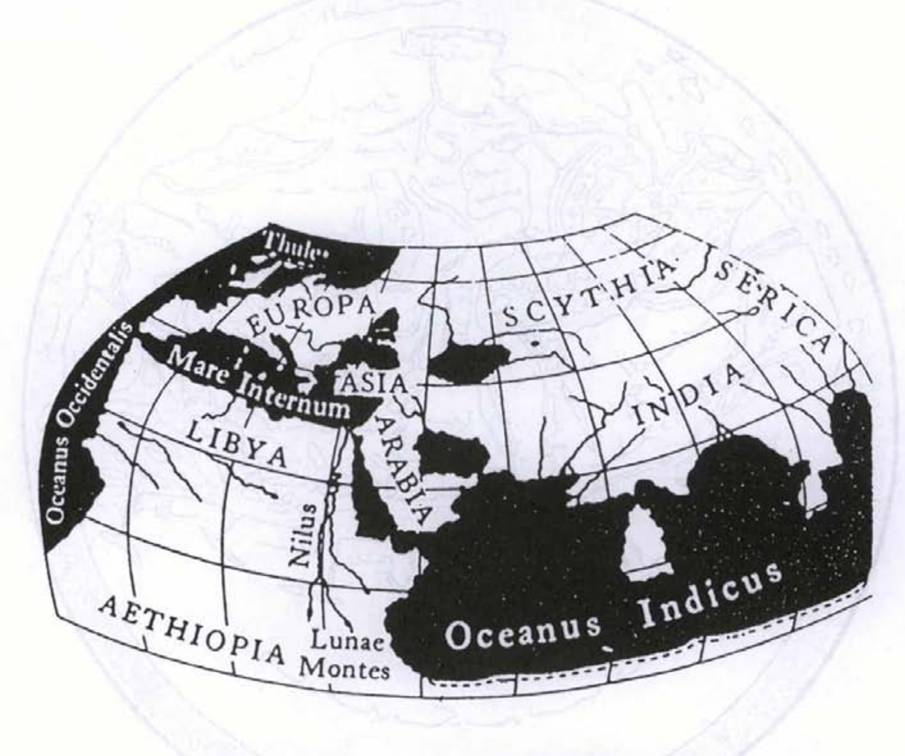
4 – Mensching, H., and Fouad Ibrahim, (1977) **"The Problem of Desertification in and Around Arid Lands.** in: **Applied Sciences and Development.** Vol. 10.

5 – Toynbee, A., **A Study of History,** Vol. 8, London.



خريطة رقم (١) الأقاليم السبعة كما رسمها البيروني

المرجع : أبو عبدالله السعيد المندوه، (تصحيح وفهرسة) مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت : والمكتبة التجارية، مكة : ج٢، ص ٢٩٧ .



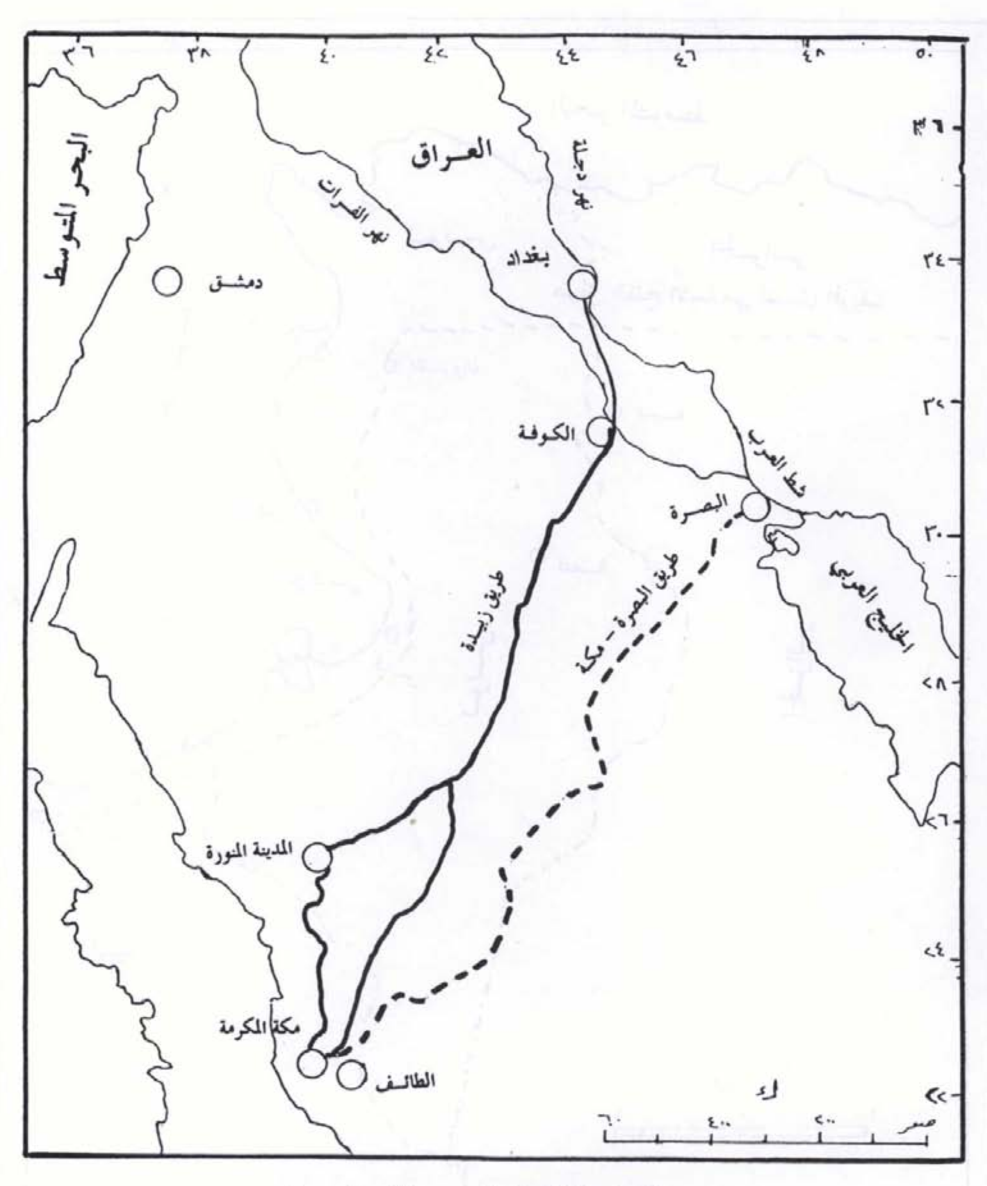
خريطة رقم (٢) خريطة النيل حسب تصور بطليموس

المرجع : The New Caxton Encyclopedia, Vol. 16, P. 124



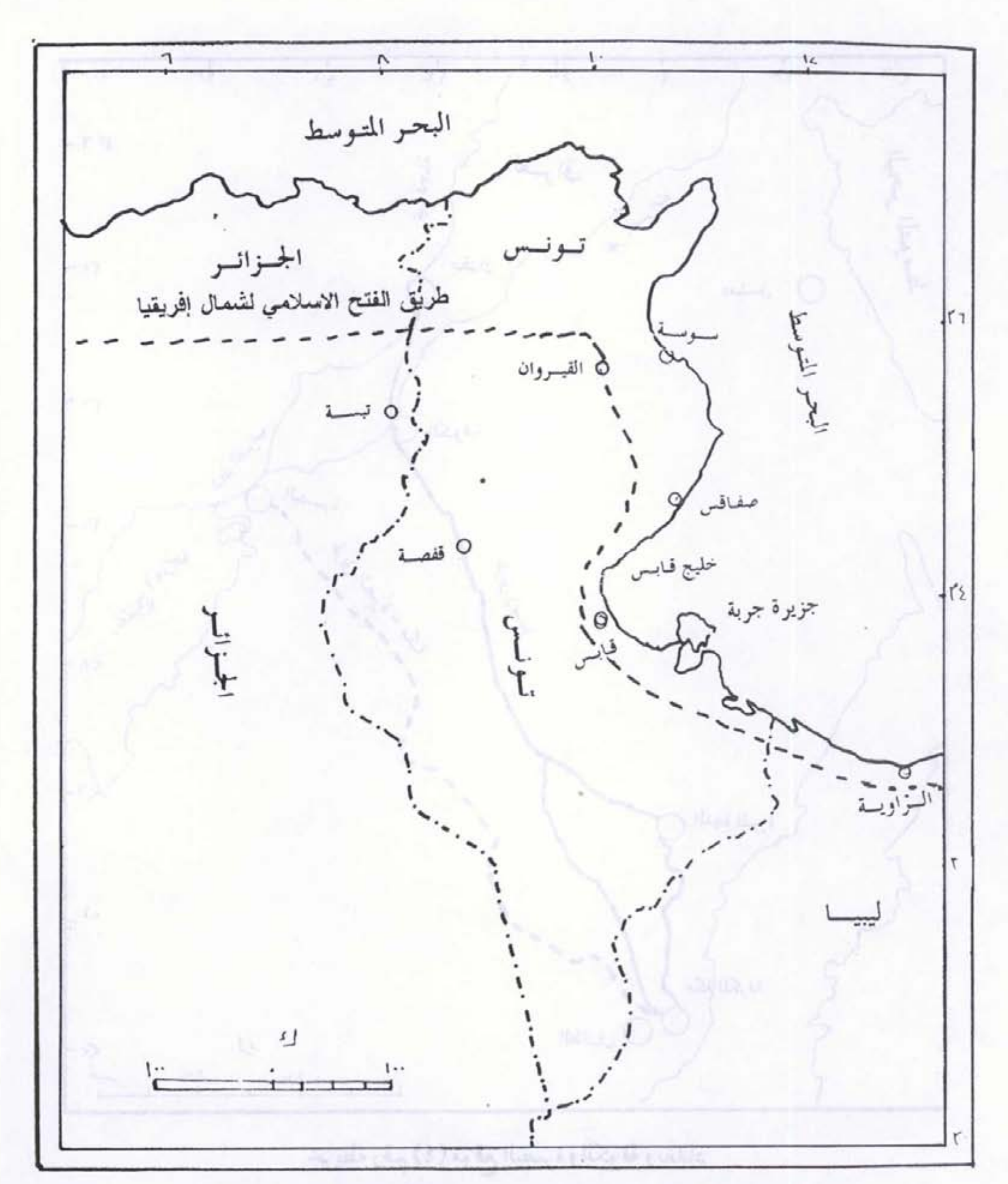
خريطة رقم (٣) خريطة الإدريسي

المرجع : محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم، ١٩٨٤، ص ٢٢١ .



خريطة رقم (٤) موقع البصرة والكوفة وبغداد

المراجع : (١) حسين مؤنس أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، ص ٥٩ .
(٢) سعد الراشدي، طريق زبيدة، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٩٨٠ . (باللغة الإنجليزية) خريطة رقم (١٧) .



خريطة رقم (٥) موقع القيروان وطريق الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا

المراجع : (١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، ص ص ١٢٠-١٢١.

(٢) شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي، دار الفكر، دمشق: ط ٣، ص ٣٨.

سلسلة أعداد الدورية لعامي ١٩٩٦ - ١٩٩٧

سلسلة اصدارات وحدة البحث والترجمة

١ ـ تقلبات المناخ العالمي	عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز
٢ ـ محافظة الجهراء	أ.د. زين الدين غنيمي
٣ ـ تعدادات السكان في الكويت	د. أمل العذبي الصباح
٤ ـ أقاليم الجزيرة العربية الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥ ـ أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦ ـ حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت	أ.د. صلاح الدين بحيري
٧ ـ الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال الاستخدام الارضي	أ.د. علي علي البنا
٨ ـ البدو والثروة والتغير: دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان	ترجمة د. عبد الاله أبو عياش
٩ ـ الدليل البحري عند العرب	حسن صالح شهاب
١٠ ـ بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة	د. ناصر عبدالله الصالح
١١ ـ طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي	حسن صالح شهاب
١٢ ـ نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية	د. عبدالحميد أحمد كليو د. محمد اسماعيل الشيخ
١٣ ـ جغرافية العمران عند ابن خلدون	د. عبد العال الشامي
١٤ ـ السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة	د. محمد محمود السرياني
١٥ ـ جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية	د. محمد سعيد البارودي
١٦ ـ جوانب من الشخصية الجغرافية للمدينة المنورة	د. محمد أحمد الرويثي

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١ - بيئة الصحاري الدافئة — ترجمة: أ.د. علي علي البنا
٢ - الجغرافيا العربية — تعريب وتحقيق: د. عبدالله يوسف الغنيم د. طه محمد جاد
٣ - مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي — د. عبد العال الشامي
٤ - العالم الثالث: مشكلات وقضايا — ترجمة: أ.د. حسن طه نجم
٥ - التنمية الزراعية في الكويت — أ.د. محمد رشيد الفيل
٦ - القات في اليمن: دراسة جغرافية — د. عباس فاضل السعدي
٧ - هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة — تعريب: د. سعيد أبو سعدة
٨ - منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض — أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٩ - البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي — تحقيق القاضي اسماعيل بن علي الأكوع
١٠ - المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق — د. أحمد حسن ابراهيم
١١ - الأبعاد الصحية للتحضر — ترجمة: أ.د. محمد عبد الرحمن الشرنوي
١٢ - التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد: دليل مراجع — د. صبحي المطوع
١٣ - قواعد علم البحر — د. حسن صالح شهاب
١٤ - الانسباق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض - الدمام — مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥ - التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي — د. وليد المنيس د. عبدالله الكندري
١٦ - كيف ننقذ العالم — ترجمة: أ.د. علي علي البنا أ.د. زين الدين عبد المقصود
١٧ - أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي — د. عبدالحميد كليو
١٨ - الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية — ترجمة: أ.د. حسن أبو العينين
١٩ - جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت — د. السيد السيد الحسيني
٢٠ - الشوائب في تحقيق كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد — تأليف: شهاب الدين أحمد بن ماجد
٢١ - التحضر في دول الخليج العربية — د. خالد محمد النعقري
٢٢ - جغرافية العالم الثالث — تعريب: د. حسن طه نجم — د. مكي محمد عزيز
٢٣ - الصور الجوية - دراسة تطبيقية — د. خالد العنقري
٢٤ - جيومورفولوجية منخفض ام الرمم بالكويت — د. عبد الحميد كليو
٢٥ - جيومورفولوجية منطقة كاظمة — د. محمد اسماعيل الشيخ
٢٦ - السرحات السلطانية — د. عبدالعال عبدالمنعم محمد الشامي
٢٧ - اليابانيون الأمريكيون — د. عبدالله بن ناصر الوليعي
٢٨ - بحار الرمال في المملكة العربية السعودية — د. عبد الله بن ناصر الوليعي
٢٩ - كفاءة الري وجدولة المياه في منطقة الخرج بالمملكة العربية السعودية — د. نورة بنت عبدالعزيز آل الشيخ